

صَوْرُ حِكْمَةٍ مِنَ الْأَرْبَعِيَّةِ

بقلم

كامل كيلاني

من المقدمة

أثارت قراءة هذا الكتاب
في نفس هذه الخواطر، وخواطر
أخرى لا أجد - من الوقت -
ما يسمح باثباتها، وأحب الكتب
إلى - ما يثير في نفس الخواطر،
وينشطني للتفكير
إذن يكون كامل قد ظفر - من
التوفيق - بما أراد، وبما هو
أهل لأن يظفر به .

طه حسين

الثنى ٨

تطلب من
مكتبة الآداب
بجامعة القاهرة
تليفون ٤٢٧٧٧

١٣٥٨ - ١٩٣٩

0381304



Bibliotheca Alexandrina

صَوْرُ حَيَاتِي فِي الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ

بقلم

كامل كيلاني

من المقدمة

أثارت قراءة هذا الكتاب
في نفسى هذه الحواطر ، وخواطر
أخرى لا أحد - من الوقت -
ما يسمح بانباتها ، وأحب الكتب
لي - ما يثبني في نفسى الحواطر ،
وينشطني للتفكير
إذن يكون كامل قد ظفر - من
التوفيق - بما أراد ، وبما هو
أهل لأن يظفر به .
طه حسين

الطبعة ٨

تطلب من
مكتبة الأدب والبحر
تليفون ٤٢٧٧٧

١٩٣٩ - ١٣٥٨

فهرست

۹

مقدمة

(۱) مناظرة الهمداني والخوانساري

۱۸

خطر المناظرة

۱۸

ترجمة الهمداني

۱۹

مبايعة قهرية

۱۹

ترجمة الخوانساري

۲۱

مقدمات المناظرة

۲۲

تحرق الهمداني إلى لقاءه

۲۳

كيف استشاره الهمداني

۲۵

دعاية الهمداني

۲۵

الساعة الخامسة

۲۷

كيف انهزم الخوانساري

۲۹

كيف سجلت الهزيمة

۳۰

حقيقة الهزيمة

۳۱

فضل الخوانساري

- أَسْبَابُ الْهَزِيمَةِ ٣٣
فَضْلُ الْمُتَنَازِلِينَ ٣٤

(٢) مُنَازَرَةُ الْكِسَاءِ، وَسَيُيُوه

- بَيْنَ الْكِسَاءِ وَسَيُيُوه ٣٨
تَرْجُمَةُ الْكِسَاءِ ٣٨
تَرْجُمَةُ سَيُيُوه ٣٨
كَيْفَ كَانَتِ الْمُنَازَرَةُ ٤٥
رَأَى النُّحَاةَ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ ٥٢

(٣) فِي مَجْلِسِ سَيْفِ الدَّوْلَةِ

- بَيْنَ الْمُتَنَبِّئِ وَأَبِي فِرَاسٍ ٦٠
مُنَازَرَةُ الْمُتَنَبِّئِ وَأَبِي فِرَاسٍ ٧٦
بَيْنَ الْمُتَنَبِّئِ وَابْنِ خَالُوَيْهِ ٩٠
تَحَامُلُ سَيْفِ الدَّوْلَةِ ٩٠
عِدَاوَةُ الْمُتَنَبِّئِ وَابْنِ خَالُوَيْهِ ٩٩

(٤) في مدينة الاسلام

- ١٠٥ بين المتنبي والحاتمى
١٠٦ تمهيد
١٠٩ كيف كانت المناظرة
١١٢ الرسالة الحاتمىة
١١٩ اضطراب الحاتمى فى روايته
١٢٧ مثال بين انتقاد الحاتمى
١٣٦ كلمة ختامية

(٥) بين المعرى وداعى الرعاة

- ١٤٠ تمهيد
١٤٣ لم كتبت هذه الرسائل
١٥١ المذهب الإسماعيلى
١٥٢ المرتبة الأولى
١٥٤ المرتبة الثانية
١٥٥ المرتبة الثالثة

١٥٥	المرتبة الرابعة
١٥٦	المرتبة الخامسة
١٥٦	المرتبة السادسة
١٥٧	المرتبة السابعة
١٥٧	المرتبة الثامنة
١٥٨	المرتبة التاسعة
١٦١	تمحش داعي الدعاة بالمعري
١٦٦	دفاع المعري عن السجع
١٦٨	محور الرسائل
١٧٨	الخير والشر
١٩٢	أثر هذه الرسائل في تسوية سمعة المعري
٢٠٦	كلمة ختامية

(٦) ابن الرومي

٢٠٨	كيف أغفله صاحب الأغاني
٢١٢	هجاء البحتري والأخفش
٢١٩	نقد كتاب ابن الرومي

استدراك

سقطت جملة في آخر « ص ١٢٨ » فاضطرب المعنى .
ونحن نثبتها ليستدركها القارىء في القطعة التالية :
« قال الحاتمي للمتنبي : أما كان في أفانين الهجاء التي تصرف
فيها الشعراء مندوحة عن هذا الكلام الذي ينفر منه كل
سمع ، ويمجه كل طبع ؟
وليت المتنبي قال له :

بل هذا كلام يرتاح إليه كل سمع ويأنس به كل طبع ما دام
يأبى الحاتمي إلا أن يتخذ من سمعه مقياساً لكل سمع ،
ويجعل من طبعه نموذجاً لكل طبع . »

وفي « ص ٢٢٠ » كلمة « المرحومان » وصوابها :
« المرحومين »

وفي « ص ٢٢١ » كلمة الرومي ، وصوابها : ابن الرومي

مقدمة

بقلم الدكتور طه حسين

جميلة خصبة هذه الفكرة التي خطرت لصديقنا كامل كيلاني فأوحت إليه أن يتحدث — إلى الناس — فيما كان من تنافس وخصومة بين جماعة من العلماء والأدباء إبان العصر العباسي ، وفي مظهر بعينه من مظاهر هذا التنافس ، هو ما يسميه الناس « مناظرة » بين هؤلاء العلماء والأدباء .
جميلة خصبة هذه الفكرة .

لأنها تعرض على جمهرة المستنيرين ألواناً من الحياة العقلية العربية ، ما كانوا يلتفتوا إليها أو يفكروا فيها ، لأنها مطوية عنهم في ثنايا الكتب وبطون الأسفار .

وهي — على ذلك — زاوية جميلة قيمة ، فيها متعة للعقول وغذاء للقلوب وتقويم للأخلاق ، وفيها — بعد هذا كله — إحياء لتاريخ الحركة العقلية عند المسلمين في عصر من أجل عصورهم وأزهاها ، وفيها — بعد هذا وذاك — جلاء لهذه المرأة الناصعة الصقيلة — مرآة التاريخ — التي تبين للعصرين

أنهم ما يزالون يشبهون الذين سبقوهم في أنحاء كثيرة — من سيرتهم — يتصل بعضها بالتفكير ، ويتصل بعضها بالخلق ، ويتصل بعضها بطريقة الملامة بين التفكير والخلق .

فالذين يقرمون ما عرضه صديقنا كامل كيلاني من مظاهر الخصومة — بين الهمداني والخوانزمرى ، وبين الكسائي وسيديويه ، وبين المتنبى وأبي فراس وابن خالويه والحاتمي ، وبين أبي العلاء وداعي الدعاة — لا يرون هؤلاء الناس وحدهم يختصمون ويتنافسون ، ويكيد بعضهم لبعض ، ويمكر بعضهم ببعض ، ويظلم بعضهم بعضا ، ثم يتنصف التاريخ للظلم من الظالم ، ويثأر للبرى من اعتدى عليه ، ولكنهم يرون أنفسهم في حياتهم هذه التي يحيونها ، والتي يأتمر فيها بعضهم ببعض ، ويجنى فيها بعضهم على بعض ، يتخذون إلى ذلك — من الوسائل والأبواب — ما كان يتخذه القدماء ، ويفكرون فيه على نحو ما كان يفكر القدماء ، ثم يظهره على نحو ما كان يظهره القدماء .

فما زال فينا — والحمد لله على الخير والشر — همداني يكيد للخوانزمرى ويحكم الكيد ، وناس يخدعهم تملق المتملقين ولباقة البقين .

وما زال فينا — والمحمد لله على الخير والشر — كسائي
يستظهر على سيويه بجاه أولى السلطان والبأس ، وبيعة عليه
بالمأجورين والمستزقين .

وما زال فينا — والمحمد لله على الخير والشر — قوم يتساقطون
على قصور الملوك والأمراء كما يتساقط الذباب ، فيكيدون
فيها للعلماء والأدباء والساسة وأهل الرأي ، ويلغون — من
ذلك — ما يريدون : كله أو بعضه .

ثم ما زال فينا — والمحمد لله على الخير والشر — قوم
زعموا أنهم يدعون إلى الخير ، ويصدون عن الشر ، ويأمرون
بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، وهم — مع ذلك — يلقون
الشباك ، ويمدون الأشرار ، يصيدون بها المفكرين والباحثين
كيداً لهم ، ونكاية بهم . وعدواناً عليهم .

كل أولئك أحياء بيننا ، نراهم — كل يوم — ويشقى بهم
كرام الناس — في كل يوم — وينقدهم الناقدون ، ويمقتهم
الماتقون .

ولكننا نراهم — في صورتهم الصحيحة المرفولة — حين

نقرأ كتاب كامل كيلانى ، لأننا نراهم — على بعد الزمن
وانقطاع الأسباب — وقد ذهبت الأحقاد ، وماتت الضغائن
فيهم .

فهم — كما يراهم التاريخ — لا يثيرون هذه الحفيظة
التي يثيرها المعاصرون ، وقد وصلت — بيننا وبينهم —
صلات المنافع والمضار ، فكان — بيننا وبينهم — التعاون
والتنافس .

نعم ، ونحن نرى — فى كتاب كامل كيلانى — ما لا نستطيع
أن نراه الآن ، وما لم يستطع القدماء أن يروه ، وسيراه
أبناءؤنا من بعدنا ، وهو حكم التاريخ للحسن ، وقضاؤه على
المسى .

قدِّمتُ — منذ أعوام — إلى الناس — طبعة كامل كيلانى
لرسالة الغفران ، بعد أن يسرها وقربها إلى المستنيرين الذين
يريدون أن يتادبوا دون أن يقفوا أنفسهم على العلم
الخالص العسير .

و كنت سعيدا شديدا للاغتياب ، لآتى رأيت هذه العناية

— بأوساط المثقفين — تعجب الناس ، وتبلغ منهم ما أراد صاحبها ، فتعلم الجاهل ، وتنبه الغافل ، وتثير نشاط الفاتر .

وقد راجت رسالة الغفران هذه — في مصر والشرق العربى — بل رأيت من المستشرقين — فى أوروبا — من يرضى عنها — ويعجب بها ، لأن صاحبها كان متواضعاً ، لا يدعى لنفسه أكثر من أنه يبدل — جهداً صادقاً — لتقريب العلم إلى الذين قد لا يستطيعون أن يصلوا إليه وحدهم .

وعلى هذا النحو ، يسرنى أن أقدم — إلى القراء — هذا الكتاب اليسير القصير القيم الخصب الممتع فى وقت واحد .



كان من الحق على كامل — حين عرض لهذه الناحية من البحث — أن يصطنع خصلتين لا بد منهما .

الأولى : أن يكون سهلاً سمحاً ، ويسيراً قريباً ، لا يكلف قارئه بحثاً ولكن يغريه بالبحث ، ولا يضطره إلى المراجعة ولكن يجيب إليه المراجعة .

الثانية : أن يحرص على الانصاف ، ويأخذ به نفسه
أخذاً شديداً ، فلا يظلم العلماء والأدباء ، ولا يظلم القراء
المحدثين ، فيفسد آراءهم في العلم والعلماء ، والأدب والأدباء ،
لأن لهم علينا حق الأمانة والصدق .

. وإني لسعيد بأن أهدى — إلى كامل — أصدق التهئة ،
لأنه وفق إلى الخصلة الأولى كل التوفيق . فلقد قرأت كتابه
— حين كان ينشر فصولاً في المقتطف — ثم قرأته أمس ،
فلما بدأت القراءة لم أدعه حتى أتممته ، لم ينلني سأم ولا ملل
ولا فتور ، لأن ما في الكتاب — من الحياة والحركة
وخفة الروح — خليق أن يستبق نشاطك موفوراً ، منذ تبدأ
الكتاب إلى أن تتمه .

أما الخصلة الثانية ، فقد تعودت مع أصدقائي جميعاً
— ومع كامل خاصة — أن أكون صريحاً شديد الصراحة ،
ولست أشك في أن الانصاف ظاهر في الكتاب ، يحسه
القراء مهما تختلف طبقاتهم وتتفاوت حظوظهم من العلم ،
ولكن في الكتاب شيئاً — لا أدري ما هو — يشعرنا بأن
شخصية المؤلف لم تستطع أن تستر كل الاستتار ، بل أظهرت
كثيراً من عواطفها وميولها ، وكأنها تريد — ولو في

استحياء — أن تفرض علينا هذه العواطف والميول .

أظننى عرفت هذا الشيء ، ففى كامل شباب شديد النشاط لا يخلو من حدة وعنف ، فهو — إذا اقتنع — لم يقتنع بعقله وحده ، وإنما اقتنع بعقله وقلبه وشعوره . وفيه كرم يتجاوز به الانصاف إلى الاسراف فى الانصاف ، فهو لا يكتفى بأن ينصف المظلوم — بالحكم له — بل يريد أن يعاقب الظالم بالالحاح عليه وتشديد النكير .

وما أرى أن الكسائى يستحق منه هذه الشدة المسرقة فى القسوة ، فكان الكسائى — من الرواية والقراءة والنحو — يفرض علينا أن نكبره ونعرف له فضله .

ومهما يجمع المجمعون على أن القول ما قال سيويه ، فأنى أحب ألا ننسى أن مذهب سيويه وأصحابه — فى النحو — كان مذهب قياس وتعليل ، وأن مذهب الكسائى وأصحابه كان مذهب سماع وتقليد للعرب ، وأن لكل من المذهبيين خطره وقيمه .

كذلك كنت أحب أن يرفق كامل بالحاتمى — كما رفق بابن خالويه — فكلاهما أسرف على المتنبي ، ولكنَّ كاملاً

ابقسم للتحوى وسخر من الأديب ، ومع ذلك فهذا الأديب
خليق أن نبسم له ، لأنه صور لنا — في سذاجة تشبه الغفلة —
نوعاً من حياة الأدباء في القرن الرابع ، يستحق أن نقف عنده
ونفكر فيه .

أثارت قراءة هذا الكتاب في نفسى هذه الخواطر ،
وخواطر أخرى لا أجد — من الوقت — ما يسمع باثباتها ،
وأحب الكتب — إلى — ما يثير في نفسى الخواطر ،
وينشطى للتفكير .

فليكن موقع هذا الكتاب — من نفوس القراء جميعاً —
كموقعه من نفسى .

إذن يكون كامل قد ظفر — من التوفيق — بما أراد ، وبما
هو أهل لأن يظفر به .

طه حسين

- ١ -

مناظرة الهمداني والخوارزمي

« متى أرت الدنيا نباهة خامل

فلا ترتقب إلا خمول نبيه »

« البحري »

مناظرة الهمذاني والخوارزمي^(١)

« وأعلن الهمذاني عليه قوم من الوجوه — كانوا
متوحين منه جداً — فلاقى ما لم يكن في حسابه
« الثمالي »

(١) خطر المناظرة

أما أثر هذه المناظرة في الهمذاني^(٢) فقد أوجزه الثمالي
في قوله :

« فلما تصدى الهمذاني لمساجلته ، وتعرض للتحكم
به وغلب هذا قوم وذاك آخرون ، طار ذكر الهمذاني في
الآفاق ، وارتفع مقداره عند الملوك والرؤساء ، وظهرت
أمارات الاقبال على أموره ، ودرت له أخلاف الرزق ،
وأجاب الخوارزمي داعي ربه ، فخلا الجو للهمذاني . »

(١) نشرت بمقتطف يوليو سنة ١٩٢٩

(٢) بديع الزمان الهمذاني

٣٠٨ — ٣٩٨ هـ

اسمه « أحمد بن الحسن » وكنيته « أبو الفضل » قساً بهمنان ثم سار في الأرض
متكسباً بآبائه وأقام بنيسابور مدة أملى بها أربعمائة مقالة نسج الحريري على منولما - فيها
بعد - كما أشار في مقدمة مثنى فضل الهمذاني عليه في السبق .

قالوا : « ثم شجر بينه وبين الخوارزمي ما كان سبباً في هبوب ريحه وبعد صيته ، إذ

وأما أثرها في الخوارزمي^(١) فكان كما يقول الثعالبي

نفسه : —

« أنف من تلك الحال ، وانخذل انخذالا شديداً ،
وكسف باله وانخفض طرفه ، ولم يحل عليه الحول حتى
خانه صمره ونفذ قضاء الله فيه ! »

(٢) مبايعة قهرية

والحق أن هذه المناظرة كانت أشبه بمبايعة قهرية من

لم يكن في الحسبان أن يحدث على الخوارزمي . وبعد المناظرة بقليل انفرد الخوارزمي
بالشهرة الواسعة ووقع صيته عند الملوك والأمراء ، فجال في حواضرهم ، ثم استوطن
(هراة) وصاهر أحد أعيانها العلماء . فالتصقت له الدنيا وقال ما تطمع إليه نفسه من الثراء
ومات في الأربعين من عمره . وكان في الخامسة والعشرين حين ناظر الخوارزمي .

(١) الخوارزمي

٣٢٢ — ٢٨٣ هـ

اسمه « محمد بن العباس » وكنيته (أبو بكر) ولد ونشأ بخوارزم وكان ممن يجرى
على طريقة ابن الميديد في الكتابة . جاب الاقطار وسافر من الشام الى أقصى خراسان دائماً
في طلب العلم والاصب وكان كثير الحفظ ، ومما يروونه عنه أنه قصد الى الصاحب بن عباد
وهو بأرجن فلما وصل الى بابه قال لاسد حجابيه قل للصاحب ان بالباب ادبياً يستأذن في
الدخول ، فقال الصاحب الحاجب : قل له قد الزمت نفي الا يدخل على من الادب . إلا
من يحفظ عشرين ألف بيت من شعر العرب .

قالوا : فنخرج اليه الحاجب واعطيه بذلك فقال له « ارجع اليه وقل له هذا القدر من
شعر الرجال لم شعر النساء . ؟ »

فدخل الحاجب واطاعه عليه ما قال ، فقال الصاحب هذا يكون لبا يكر الخوارزمي ، قالوا : فأخذله
في الدخول فدخل عليه صمره وانبط له وكان الخوارزمي في الستين من عمره وقت المناظرة .

الخوازمي للهمذاني ، فقد انتهت المعركة بمثل ما تنتهي اليه
هزيمة الملوك ، وانتقل تاج البهرة من رأس إلى رأس !
ولعل أصدق مثل ينطبق على ما حدث بين الهمذاني
والخوازمي هو مثل السلخفة والأرنب المشهور ، حين
تراهنا على السباق إلى غاية ، قهاون الأرنب — اعتماداً على
سرعته — وجدت السلخفة لتعوض ما فات من قوتها .
فقد كان الخوازمي حينئذ شيخاً قضى عمره بين حل
وترحال ، ومضى على غلوائه في الاضطراب والاعتراب
— كما يقولون — وشرّق بعد أن غرب وخبر الدهر وأهليه ،
وتعرض لكيد الرؤساء وغضب الزعماء ، فلما تصدى
الهمذاني لمناظرته — وهو حينئذ في سن الشباب — استخف
به ولم يعد العدة لمناصلته ، وكأنما كان يتمثل قول القائل :

« عنرت البُزْل إن هي غالبتني

فما بالي وبال ابني لبون ! »

ولم يكن زهد الخوازمي في مساجلته بأقل من ولوع
الهمذاني بها وتحرقه اليها ، لأنه كان يرى فيها أكبر
فرصة للظهور .

(٣) مقدمات المناظرة

ألا ترى إلى الهمداني يبدأ بالتجنى على الخوارزمي وتقريعه واتهامه بالجفاء والكبر^(١) فيرد عليه الخوارزمي رداً كريماً يختمه باظهار خطأ الهمداني فيما ذهب اليه من توهم الجفوة^(٢) فلا يكون للهمداني شاغل الا استثارة الخوارزمي وتنقصه وعييه - في كل ناد ومحفل^(٣) - مرتقبا الفرص لمناضلته وقهره ، ليصل بذلك إلى الشهرة من أقرب طريق.

(١) ارجع الى « ص ١٥ » من رسائل الهمداني

(٢) ارجع الى « ص ١٥ » من رسائل الهمداني

(٣) انظر الى قول الهمداني في إحدى رسائله - يتخذ الخوارزمي ويتهم به على طريقته في الزبابة والامتناع - لثرى إلى لى نجد وصل به هراء وتعامله :

« سألت - أسمع الله بك - عن الخوارزمي وشعره ، وقلت : إني لأجد فيه بيتا - لو رؤى في الملم - لأوجب الفصل حيا ، وبعده بيتا - إذا مرد - ينقض الطهارة مسا - ولمرى إن هذين البيتين لو كانا يتبعين ما تبتا في ارض ، او تمرتين ما جنيتا من غصن ، فكذلك إذا كانا شمرين يعد ان يصدرا - إن صدرا - عن صدر ، او يطعما من طبع ، او يصبا على قالب قلب ، او يكونا نفسى نفس »

وهو في هذا الاسلوب ينهج منهج القائل في هجاء احد اقرابه :

« لو كنت ماء كنت غير غضب او كنت سيفاً كنت غير غضب
او كنت طرفاً كنت غير فذب او كنت لحما كنت لملم كلب »

وهذا المعنى هو عكس قول القائل في وصف حيته :

« فلو كنت ماء كنت من ماء مرة ولو كنت نوما كنت إنغافة الفجر
وانظر الى تعامل الهمداني في قوله :

« فقد يسمن الشاعر ثم يمت ، ويجيد القائل ثم يرث »

(٤) تحرق الهمداني الى لقاءه

فاذا بدا له أمل في الاجتماع به ، حرص الهمداني على
تجعل الفرصة وسعى جاهداً إلى تحقيقها - خشية أن تفلت
من يده - كما نيم على ذلك قوله :

« واتفق أن السيد أبا علي نشط للجمع بيني وبينه ،
فدعاني فأجبت ، ثم عرض علي حضور أبي بكر الخوارزمي
فطلبت ذلك وقلت : « هذه عِدَّة كنت أستنجزها وفرصة
لا أزال أنتهزها » ..

فتجشم السيد أبو الحسين وكاتبه يستدعيه ، فاعتذر

ولكن لا كما تراه في شعر أبي بكر .

وما كنت لا كشف تلك الاسرار واهتك تلك الاسرار ، وأظهر منه العار والموار ،
لولا ما لفتنا عنه من اعتراض فيا أملينا ، وتجهيز قدح فيها رونا من مقامات الاسكندري
من قوله : « إنا لا نحسن سواها ، ولنا تقف عند منهلها »

ولو أنصف هذا الفاضل لراض طبعه على خمس مقامات ، او عشر مقترحات ، ثم عرضها
على الاسماع والغبائر واعلما بالابصار والبصائر ، فإن كنت تقبلها ولا ترجها ، او
تأخذها ولا تمجها ، كان يقرض علينا بالقدر وعلى املائنا بالجرح .

او يقصر سعيه ويتداركه وحين فيعلم ان من املى من مقامات الكدية اربعة مقامات
- لا مناسبة بين المقامين لالفاظ ولا معنى - وهو لا يقدر منها على عشر ، حقيق بكشف
عيوبه . والسلام »

فانت تراه لا يرى الخوارزمي جديراً بالزوعة إلا إذا انشأ مثل مقاماته ، وأن
الاديب لا يكون ادنيا قدراً إلا إذا نما هذا النحو من البيان .

أبو بكر في التأخر فقلت : « لا ، ولا كرامة للدهر أن
تقعد تحت حكمه أو تقبل خسف ظلمه ، ولا عزازة للعوائق
أن تضيقنا ولا نضيقها وتعيننا ولا ندفعها » .

وكاتبته أنا أشحد عزيمته على البدار ، وألوى رأيه عن
الاعتذار ، وأعرفه ما في ذلك من ظنون تشبهه ، وتهم تتجه «
وهنا يقول الهمداني :

« وقدنا إليه مراكباً لنكون قد أزماناه الحج
وأعطيناه الراحة ، فجاءنا في طبقة أف ، وعدد تف (١)
كل بغيض قد اصبح وأنفه خمسة أشبار ...! »
الح

(٥) كيف استثاره الهمداني

ولم يكد يستقر به الجلوس حتى بدأ يستثيره الهمداني
ويتحرش به إلى أن زج به في ميدان المساجلة وأنشده
الهمداني أبياتاً كلها تهكم به وزراية عليه وتنقص لأدبه .

(١) انظر إلى تعامل الهمداني على خصمه فأنه تراء كيف يصف أصحاب خصمه
وسخر منهم « فلما ذكر من تملقهم فأيدوه على خصمه قال « وما منهم إلا أقر نجيب »
إلى آخر هذه العبارات المنمقة التي صاغها في مدح كل من أيده وناصره .

وقد أجاز الخوارزمي بيتاً للمتنبي كما أجاز الهمداني ،
وعاب عليه الهمداني ما في نظمه من قافيات مكروهة ، فلما
بدأ الخوارزمي يعيب عليه قوله :

« يا أحمقا ! وكفاك ذلك خزية

جربت نار معرتي هل تحرق ! »

ويعني عليه صرف كلمة « أحق » أمطره الهمداني
سيلا من السباب ، فقال :

وأما أحق فلا يزال يصفعك لتصفعه ، حتى ينصرف
وتنصرف معه ! »

ومن العجيب أن الهمداني يسبه ما شاء أن يسبه ،
دون أن يقف في سفاهته عند حد ومن غير أن يراعي
فضل الرجل أو شيخوخته ثم لا يخجل أن يقول له
بعد ذلك :

« يا هذا إن الأدب غير سوء الأدب ، وللمناظرة
حضرنا لا للمناقرة ، فإن نفضت عن هذا السخف يدك ،
وثبتت عن هذا السفه قصبك ، وإلا تركت مكالتك ... » الخ

(٦) دعاية الهمذاني

فإذا انفض المجلس طفق الهمذاني يروج في كل مكان
أنه انتصر على الخوارزمي أيما انتصار وخذله أيما خذلان،
ويرسل اليه - في نفس الوقت - رسائل الشوق والمجاملة
والتحرق الى اللقاء، ويوفد اليه رسلا يصلحونه وإياه :

ولكن الخوارزمي يبعث اليه من يقول له :

« قد تواترت الأخبار وتظاهرت الآثار في أنك
قهرت وأنتى قهرت، ولا أشك في أن هذا التواتر عنك
صدرت أوائله، والخبر إذا تواتر به النقل قبله العقل، ولا
بد أن نجتمع في مجلس بعض الرؤساء ننظر بمشهد الخاصة
والعامة الخ... »

واذن فقد بلغ الهمذاني إربته، واحتاج الخوارزمي
فاندفع الى طلب المناظرة - بلا تدبر ولا روية - فبعث اليه
الهمذاني بكلام ظاهره اعتذار وباطنه احتشاث على المناظرة
واستنفار إليها :

(٧) الساعة الحاسمة

ومرت الأيام، ثم جاء اليوم المشهود، وعقدت

المنافرة في دار الشيخ أبي القاسم المستوفي الوزير ، بعهد
من القضاة والفقهاء والأشراف وغيرهم من سائر الناس .
وهنا يبكر الهمداني في الحضور ليلمق من حضر
ويتودد إلى الشهود - بكل ما في وسعه - ويدبر خطط
الدفاع والهجوم تدير الحاذق الذكي .

قال : « وكنت أول من حضر ، وانتظرت ملياً
حضور من ينظر الخ »

فإذا رأى من بعض الحاضرين شيئاً من الانحراف
عنه ، تقرب إليه متملقاً ، كما فعل مع الشريف السيد
أبي الحسين - حين رأى منه جانب الاعراض - فقال له من
كلام طويل :

« فإن كنت أبلغت غير الواجب فلا يحملنك على
ترك الواجب . ثم إن لي في أهل الرسول - صلى الله عليه
وسلم - قصائد سارت في البلاد وطارت في الآفاق ،
ولكني أتسوق بها لديكم ، ولا أتفق بها عليكم ، وللآخرة
قلها لا للحاضرة ، وللدين ادخرتها لا للدنيا ! »

فقال الهمداني :- « أنشدني بعضها »

فأنشده الهمذاني شيئاً مما قاله . فإذا حدث ؟
ترك الهمذاني نفسه روايته ، فهو يقول :
« فلما أنشئت ما أنشئت أحملت له العقدة ، وصار
سليماً ، يوسعنا حلماً الخ »
وبذلك أصبح الشريف من أنصار الهمذاني ومؤيديه .

(٨) كيف انهزم الخوارزمي
وجاء الخوارزمي - بعد أن تكامل العدد وتمت
المؤامرة - فقبول بفتور .
ولم يكذب مجلس في مكانه الجدير به حتى طلب اليه
الهمذاني أن يتخلّى عنه الى غيره ، وواقفه الحاضرون على لباقة
وحذلقته (١) .

(١) ولم يشأ الهمذاني ان يراعى الفرق بينه وبين منظره في السن ، وإنما ترك الهمذاني
نفسه رواية ما حدث ، قال :
ومضى الى فوق اعتناق الناس ، وجعل يدس نفسه بين الصدور يريد الصدر ، وقد
أخذ المجلس أمه فقلت :

« يا أبا بكر تخرج عن الصدور قليلاً الى مقابلة أخيك »
فقال : « لست برب القار تلمر على الزوار »
فقلت : « يلعنك الله ، حضرتنا طرقي ، والمناظرة اشتقت من الظلم ، فإن كان
اشتغالها من النظر ، فمن حسن النظر ان يكون مقعدنا واحداً حتى يبين الفضل من
المفضول ، ثم يتناول السابق ويتفاصر للسبوق »

ولقد أخطأ الخوارزمي أشنع الخطأ حين رضى بالبقاء
والمناظرة في مجلس مشيع بروح الخصومة واللدن .

وليته اتبع قول ابن المقفع في وصف صديق حازم :
« وكان لا يُدلى بحجته حتى يجحد قاضياً فهماً وشهوداً
عدلاً »

إذن لا من عواقب هذا الاندفاع والتسرع . ولكن :
« ألا يا قوم للعجب العجيب وللغفلات تمرض للأريب »

ولكن كيف انهزم الخوارزمي في المناظرة ؟

ليس لدينا غير مصدر واحد نعتمد عليه في ذلك هو
رواية الهمداني نفسه ، وهي رواية خصم عن خصمه
لا تقابل بنير الحذر والانتباه . وقد تعمد الهمداني
— بلا شك — أن يسجل فيها انتصاره مضاعفاً ، بأسلوب
جديد من أقوى أساليب الدعاية ، ولو كان لدينا مصدر آخر

قال الهمداني : « فقصت الجماعة بما قضيت ، وخص هذا الفاضل من تلك الحكمة »

وانحط عن تلك العظمة »

وقد كان هذا أول انتصار الهمداني على خصمه ، وقد عرف كيف يمكن عليه صفاء
نعمته وبركه قبل أن يتصل بالمناظرة .

لتكشفت لنا جوانب كثيرة تعمد الهمداني - بلا شك -
أن يُخَفِّيهَا عَنَّا ، لِيَزْعِمَ لِنَفْسِهِ الْفَوْزَ كَامِلًا وَالْإِتِّصَارَ حَاسِمًا
(٩) كَيْفَ سَجَلَتْ الْهَزِيمَةُ

على أَنَا نَلْمَحُ فِي كَلَامِ الْهَمْدَانِيِّ نَفْسَهُ ، أَنَّهُ قَدْ ائْتَصَرَ
عَلَى الْخَوَارِزْمِيِّ ائْتِصَارًا ، الْهَزِيمَةُ خَيْرٌ مِنْهُ .
وَقَدْ ذَكَرْنَا لِلْقَارِئِ طَرَفًا مِنْ تِلْكَ الْأَسَالِيبِ الْعَجِيبَةِ
الَّتِي سَلَكَهَا الْهَمْدَانِيُّ لِلتَّغْلِبِ عَلَى خَصْمِهِ الْخَوَارِزْمِيِّ
الْأَدِيبِ الْكَبِيرِ وَابْنِ أُخْتِ « الطَّبْرِيِّ » الْمَوْرُخِ الْكَبِيرِ .
وَهِيَ أَسَالِيبٌ نَعْمُهَا دُرُوسًا قَاسِيَةً فِي التَّهَافُتِ
الْمُسْتَنَكِرِ عَلَى الشَّهْرَةِ وَعَوَاقِبِهِ .

فَقَدْ رَأَيْتُ أَنَّهُ لَمْ يَدْعُ وَسِيلَةً مِنْ وَسَائِلِ التَّهْوِيشِ
وَتَغْلِقِ الْحَاضِرِينَ وَلِإَرْضَائِهِمْ إِلَّا أَتَاهَا .
فَلَمَّا ائْتَمَّتِ الْمُنَاطَرَةُ وَأَرَادَ تَسْجِيلَ مَا حَدَثَ فِيهَا - كَمَا
شَاءَ لَهُ الْهَوَى - طَفِقَ يَكِيلُ الْمَدْحَ كَيْلًا لِكُلِّ مَنْ لَهُ خَطَرٌ
مِنَ الْحَاضِرِينَ حَتَّى يَأْمَنَ أَنْ يَكْذِبُوهُ فِي شَيْءٍ مِمَّا رَوَاهُ .
وَطَفِقَ الْهَمْدَانِيُّ وَأَنْصَارُهُ وَخَصُومُ الْخَوَارِزْمِيِّ يَذِيعُونَ فِي
كُلِّ مَكَانٍ أَنَّ الْخَوَارِزْمِيَّ قَدْ ائْتَهَزَمَ شَرَّ ائْتَهْزَامٍ .

(١٠) حقيقة الهزيمة

ولكن هل كانت الهزيمة حاسمة !

ذلك ما نرتاب فيه رغم ما يؤكده لنا الهمذاني ،
ويصوره لنا في روايته التي ليس لدينا مصدر سواها .
ونحن نعتقد أن الهزيمة — إن كانت ثمة هزيمة — لم تكن
وسائلها شريفة ، وليست تنقص من فضل « الخوارزمي »
فقد كانت كل كلمة يقولها « الهمذاني » تقابل بالاستحسان
ويعرب الحاضرون عن رضاهم عنها بالقول والاشارة وانبساط
الأسارير (١) . وقد أحسن « الخوارزمي » في وصف خصمه
بالشعبذة فلم يعن أحد بقوله . مع أنه وصف صادق لأدب
الهمذاني — في ذلك الحين — فقد طلب من مناظره مثلا : أن
يكتب كتابا « خاليا من الحروف العواطل » وآخر
« أوائل سطره كلها ميم وآخرها كلها جيم » الى آخر

(١) وما يدل على ذلك ما يرويه لنا الهمذاني في رساله إذ يقول :

وقول الجماعة : « قد علمنا أي الرجلين اشهر وأي الخصمين اقدر » وأي البهيمن

اسرع ، وأي الروائين اصنع »

فيحسبهم الخوارزمي يهتونه باتصاله فيقول « فطعنوني على الظفر »

فيقولون له متهمين : « كفك ماسكك »

هذه الأمور التي لا نرى في وصفها أصدق من كلمة الشعبذة !

لقد كان الخوارزمي في سن الشيخوخة ، وقد أحرز أقصى ما يتطلع اليه من شهرة ومجد ووصل إلى أرقى منزلة تتسلى اليها نفس أديب ، وهي منزلة الزعامة ، وهو حينئذ قد اجتاز مرحلة الجدال والمهاترة والمباهاة بالحفظ إلى آخر هذه الأشياء التي يكثر منها الأديب الناشئ الطامح إلى الشهرة وأصبح يأنف بطبعه من ذلك ، ولو جاوله — وقد فعل — لا خفي كل الاخفاق .

ومثل لنفسك شاباً ذكياً يواصل ليله بنهاره في الدرس والتحصيل وتطمح نفسه إلى عظم الأمور ، يأتي إلى زعيم من زعماء الأدب في عصره فيناقشه في تلك القواعد الأولية التي تركها منذ زمن بعيد وانصرف عنها إلى ما هو أسمى منها من الاهتمام بفلسفة الحياة ومثلها العليا ، فإذا تكون النتيجة ؟

(١١) فضل الخوارزمي

فإذا سلمنا بانهمزام الخوارزمي فليست هذه الهزيمة مما ينقص من مكانته العالية عندنا ، فقد يكبو الجواد وكثيراً

ما صاحب التوفيق من ليس له أهلاً وخذلت الظروف
من هو أجدر الناس بالفوز . وربما أجيبت القرينة الواقعة
كما حدث للحريرى فى موقفه المشهور .

ومن الناس من يصلح للكتابة ولا يصلح للخطابة
ومنهم من يلائمه الجو الهادىء ويؤذيه الصخب . ولقد تلمع
مثلاً أبو على القالى - وهو الأديب الكبير - وأرتج عليه
حين أراد الترحيب برسل ملك الروم فى الأندلس وأظهار
مجد الاسلام أمامهم^(١) فهل دل ذلك على شىء أكثر من
أن لكل مقام ناساً لا يصلحون إلا له ؟ فلا تبنى على القالى
التفكير الهادىء والبحث الأدبى المطنن ، وتمحيص
الروايات والأسانيد ، وغيره ذلاقة اللسان والثروة والتأثير
الخطابى على نفوس العامة ، وليس فى استطاعة أحدهما أن
يقوم مقام الآخر .

(١) لا أمره الناصر بالكلام حمد الله وصلى على النبي ثم أريج عليه لمول المخل وأبهة
الحلقة ، قالوا : « واقطع وبهت » فواصل لإقطع ، فوقف ساكناً مفكراً . فلما
رأى منذر بن سعيد البلوطى ذلك قام قائماً بدرجة من مرقاة ابن على ، ووصل افتتاحه
وخطب خطبة حنيفة ، (ارجع الى كتب نظرات فى تاريخ الأديب الانطلى
للؤلف ص ٢٠٦) وقد كانت هذه الخطبة سبباً فى رفع شأنه بعد ذلك كما رفعت عنه المناظرة
من شأن الممنائى ١

والهمداني كذلك دولة الألفاظ يلعب بها لعب الماهر
الحاذق بالشطرنج ، وللخوارزمي التوفيق في التعبير عما
يدور بنفسه من أدق المعاني وأخفى الخوارج ، وعرضها على
الناس في أجمل معرض .

(١٢) أسباب الهزيمة

وجماع القول أن الخوارزمي كان يعتقد بنفسه أكبر
اعتداد ويحقر الهمداني ، ولا يرى فيه كفتاً جديراً
بالاستعداد لمساجلته ، بينما كان الهمداني يعد كل عدته في
سبيل الانتصار عليه لأنه كان يرى في هذا الفوز ادراك
أقصى غايات الشهرة . وكان شهود المناظرة ممن يكرهون
الخوارزمي ويميلون الى الزرارية عليه والخط من شأنه - كما قلنا -
وقد بكر الهمداني في الحضور وأعد أركان الدفاع ورسم
الخطط الهجومية ، واستمال الحاضرين بدعائه وظرفه
ومدأخه وهياً لنفسه كل أسباب الانتصار . وقد كان
الهمداني قوى العارضة حاضر البديهة سريع الخاطر وهذه
أقوى عدة يعتقد بها كل من يتصدى للمناظرة والجدل .

(١٣) فضل المتناظرين

بقى علينا أن نقول — إنصافاً للحقيقة — :

إننا نتكلم الآن على الهمداني وهو في زمن المناظرة أيام كان يطمح إلى اغتصاب الشهرة اغتصاباً من أديب عصره الفذ « أبي بكر الخوارزمي »

على أننا جديرون أن نقرر أن الهمداني قد وصل بعد ذلك — حين خلاله الجو عقب موت الخوارزمي — إلى منزلة إن لم تصل إلى منزلة الخوارزمي فهي ليست جد بعيدة عنها .

ولا جرم أن الهمداني لم يبلغ هذه المرتبة إلا بعد أن وجه همهته إلى الأدب الخالص والتعبير الصادق عن إحساسه .

ولو عاش إلى مثل سن الخوارزمي لما قصر عن شأوه . وربما مثل معه أحد الناشئين نفس هذه الرواية التي مثلها مع الخوارزمي .

على أن كلا الأديبين — في التقصير والنبوغ على
السواء — متفق في العناية بالسجع والمحسنات اللفظية التي
لا يرضاها عصرنا وإن كان السجع قد أصبح لكليهما
سجية ، وكان لا يحىء منهما إلا عفو الخاطر فلا تكاد
تسمر بتكلف في صياغته لا سيما في كلام الخوارزمي المملوء
حكمة وتمقلا .

فإذا تعنت ناقد فعرض علينا شيئا من سخافاتهما
محاولا إسقاط قيمتهما ، عرضنا له أضعاف ذلك من
حسناتهما ، وقلنا له : « إن كائنا من كان ، لا يخلو من سقط » .

على أنهما كانا متأثرين بعصرهما في ذلك ، وقد حملا
لواء الزعامة متعاقبين وكانا قدوة للناشئين من الأدباء
كما كانا محل تبجيل أساطين الأدب في ذلك العصر الحافل
بالأدباء .

مناظرة الكسائي وسيبويه

مسألة العقرب والزنبور

«وليس يظن امرؤ من حاسد أظم
لولا التماس - في الدنيا - لها أظما
والنهن - في العلم - لشجى عنة طلت
وأبرج الناس شجواً علم هضبا»
«حازم القرطاجي»

بين الكسائي وسيبويه^(١)

كان من أثر المناظرة التي قامت بين « الهمداني » و « الخوارزمي »^(٢) أن « الخوارزمي » مات بعد قليل من الزمن ولم تحتمل شيخوخته تلك الصدمة العنيفة . وكان من أثر المناظرة التي قامت بين « الكسائي »^(٣) و « سيبويه »^(٤)

(١) نشرت بمختلف غطس سنة ١٩٢٩

(٢) انظر ص (١٨)

(٣) الكسان

توفي سنة ١٨٩ هـ .

اسمه « علي بن حمزة » وكنيته « أبو الحسن » وهو امام أهل الكوفة في النحو ، وهو أحد القراء السبعة المشهورين . وكانت نشأته الكوفة ثم خرج الى بغداد بعد أن برح في النحو واللغة واتصل بالمهدي ثم صار مؤدب الامين وقال مكانة ممتازة في حاشية الرشيد . قالوا : « وقد تعلم — على كبر — وكان سبب ذلك أنه لحن مرة أمام جمع من طلبة العلم فهاجروا عليه فأقبل على الدرس حتى أصبح من أئمة النحو الممتازين .

قالوا : « وكان يروى الشعر وليس له فيه جيد نظر . » وتوفي بالري سنة ١٨٩ هـ .

(٤) سيبويه

توفي سنة ١٧٧ هـ .

اسمه « عمرو بن عثمان » وكنيته « أبو بشر » أصله فارسي . وقد كانت ولادته بالبيضاء ونشأته بالبصرة . وهو — بلا منازع — امام أهل البصرة وتوجهتهم في النحو . وقد لازم الخليل بن احمد واستفاد منه وكان ذلك سبب تفرقه ويراغته .

قالوا : « وكان يطلب . . أول امره — الحديث والفقه ، فبقيت عليه لجنة لحنها في مجلس شيخه نخجل ، وطلب النحو حتى صار امام عصره فيه . » قالوا « ولقب سيبويه بالفارسية ومناعها : وائحة التفاح » وتوفي سنة ١٧٧ هـ . وسنه نيف واربعون سنة

أن « سيبويه » مات كمدأ وهو في ريعان شبابه وحين نشاطه
وكما يقولون — ولم يحتمل شبابه تلك الهزيمة القاتلة .
« ليست الطرق التي لجأ إليها « الكسائي » بأقل قسوة من
تلك الطرق التي سلكها « الهمداني » للتغلب على
الحوارزمي ، والانتصار عليه .

ولقد قلنا في المناظرة السابقة إن « الهمداني » قد أعد
عدته وهياً لنفسه كل أسباب الانتصار والفوز على خصمه
وزج به في مجلس كله خصومة ولدد . ونقول في هذه
المناظرة إن « الكسائي » لم يقصر في إعداد كل الوسائل
لهدم « سيبويه » ولم يتعفف عن شيء في سبيل الانتصار
عليه .^(١) وإذا كان « الهمداني » قد لجأ إلى تملق تشهود
المناظرة لينصروه علي « الحوارزمي » واشترى ذممهم بهذه
الحيلة فإن الكسائي قد لجأ أيضاً إلى نفوذه وجاهه وماله
واتخذ من صداقته للبرامكة وكونه مؤدب أولاد أمير

(١) قالوا : « وقد ارشى الحشائي العرب — وقاوا جماعة من المشرقة الذين
كان يؤلمهم — على ترجيح جانبه »

المؤمنين وسيلة للتغلب علي « سيبويه »

ولئن شكونا في المناظرة السابقة قلة المصادر التي نرجع اليها في تحقيقها ولم نجد غير رواية « الهمداني » نفسه وهي — كما قلنا — رواية خصم عن خصمه ، فإن ما نشكوه في هذه المناظرة هو تعدد المصادر وكثرتها وتباين رواياتها وأثر التعصب فيها وتعمد التشويه .

على أن هذه الروايات — رغم اضطراب بعضها واختلافه في التفاصيل — متفقة في الأساس والجوهر ، فهي — من أية ناحية رأيت وبأية رواية أخذت — تدل على أن سيبويه قد ظلم وأن الحق كان في جانبه .

فقد أجمع علماء النحو واللغة — في زمن سيبويه وبعد زمنه — على أن الصواب ما قال وأن الكسائي كان في الجانب الخاطئ . ولم يشذ عن هذا الإجماع إلا شعبة الكسائي والطامعون في ماله أو جاهه والمحسوبون عليه وذوو الحاجات وطلاب المآرب الذاتية .

وليست هذه المناظرة على الحقيقة — إن صح أن

نسميها مناظرة — إلا نضالا بين مذهبين وحربا بين مدرستين ، مدرسة الكوفيين ومدرسة البصريين أسيادهم ، ممثلتين في شخصي الكسائي زعيم علماء النحو في الكوفة وشيخ مدينة السلام ، وسيبويه زعيم علماء النحو في البصرة وتلميذ الخليل بن أحمد بن سيد أهل الأدب — كما كانوا يلقبونه — وقد تضافرت الأهواء — من سياسة وغيرها — على تغليب رأى الكسائي وترجيحه على رأى سيبويه (١)

على أن فضل سيبويه ذائع -- رغم انتصار الكسائي عليه -- وكتابه الذي ألفه في النحو لم تبطل جدته إلى اليوم ولا يزال كتاب نحو وأدب معاً وأسلوبه في أعلى طبقات البلاغة ، وقد كان المبرد يقول لمن يريد أن يقرأ عليه كتاب سيبويه : « هل ركبت البحر ؟ » تعظيماً لشأنه ،

(١) فقد كان العباسيون يقربون اليهم الخوفيين لانهم ضرورهم في دعوتهم ، وكان لهذا الاعتبار اكبر الاثر في اصالحهم بالحفلة .

وكان الزجاج^(١) يقول . « إذا تأملت الأمثلة من كتاب
سيبويه تبيننت أنه أعلم الناس باللغة »

وقال الجَرْمِي^(٢) . « أنا منذ ثلاثين سنة أقتى الناس في

الفقه من كتاب سيبويه »^(٣)

وقال المازني « من أراد أن يعمل كتاباً كبيراً في

النحو بعد كتاب سيبويه فليستح »

وقد كتب سيبويه هذا الكتاب الخالد في الوقت
الذي كان فيه الكسائي منصرفاً الى المناصب والاتصال
بالخليفة والدعاية لنفسه بأنه العالم الفذ الذي استنفذ خمس
عشرة قنينة جبر في الكتابة عن العرب وأن هذا زيادة على
ما حفظه ، الى آخر هذه الدعاوى الفارغة التي لا يعنى بها

(١) ابو اسحق الزجاج

(٢) ابو عمر الجرمي

(٣) يريد بذلك انه تعلم منه النظر وطريقة البحث النقي.

المنصرفون إلى العلم حقاً والتي هي أشبه بالإعلانات التجارية.
وهذا أسلوب فذ في الدعاية لجأ إليه الكسائي — في جملة
ما لجأ — للوصول إلى الشهرة .

وإذا رأينا علماء اللغة وأئمة النحو يحترمون «سيبويه»
ويقرون مذهبه ، رأيناهم على العكس من ذلك — ينفرون
من مذهب «الكسائي» ويرون فيه إفساداً للغة واضاعة للنحو .
قال « ابن درستويه » : « كان الكسائي يسمع الشاذ
الذي لا يجوز إلا في الضرورة فيجعله أصلاً يقيس عليه
حتى أفسد بذلك النحو . »

وقال الأصمعي : « أخذ الكسائي اللغة عن أعراب
من الحطمة ينزلون بقطر بل ، فلما ناظر سيبويه استشهد
بلغتهم عليه . »

وقال محمد الزبيدي :

« كنا تقيس النحو فيما مضى
على لسان العرب الأول

فجاء أقوام يقيسونه
على لُغَى أشياخ قُطُرٍ بُلْ
فكلهم يعمل في تقض ما
به يصاب الحق لا يَأْتِلِي
إِن الكسائيَّ وأصحابه
يَرَقُونَ في النحو إلى أسفلِ

وقال الزَّجَّاجُ «أى إنصاف في الرجوع الى أعراب
وفدوا لحاجاتهم، وسيبويه رجل غريب وأخصامه أهل
البلد والدولة؟ وإنما الحكم للعارف بالصحيح وغيره، وقد
لا يعرف الأعرابي إلا لغته الشاذة»
الى آخر هذه الآراء.

وقد أشار «المعري» الى تحامل الكسائي على سيبويه
في «رسالة الغفران» — وألمع الى بغض المناظرات التي قامت
في ذلك العصر — الحافل بالمناقشات والمناظرات بين علماءه —
فقال في معرض الكلام على تناسي الحسائلك والأحقاد في
الجنة بين ألد الخصوم :

« فصدر أحمد بن يحيى ^(١) هناك قد غُسل من الحقد
على محمد بن يزيد ^(٢) فصارا يتصافيان ويتوافيان

وأبو بشر عمرو بن عثمان « سيديويه » قد رحضت ^(٣)
سويداء قلبه من الضغن على « علي بن حمزة الكسائي »
وأصحابه لما فعلوا به في مجلس الدرامكة « وأبو عبيدة » صافى
الطوية لعبد الملك بن قريب ^(٤) . والملائكة يدخلون عليهم
من كل باب : « سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار » ^(٥)

كيف كانت المناظرة

لم يكدر سيديويه الى العراق حتى شعر الكسائي
أن مركزه العلمي فى خطر وأن منافساً جديداً يحاول أن
يغتصب منه مقام الزعامة .

قالوا : « وشق أمره على الكسائي فأتى يحيى وجعفر
ابن برمك وقال :

(١) ثعلب (٢) المبرد (٣) غسك (٤) الاصمى (٥) ارجع الى رسالة
الفرقان (ج ١ ص ٦١)

« أنا وليُّكما وصاحبكما وهذا الرجل إنما قدم إلى العراق ليذهب محلي . »

قالا : « فاحتل لنفسك فإننا سنجمع بينكما . »
وهكذا دبرت المؤامرة في بيت البرامكة لهدم سيبيويه

فلما حان الموعد حضر سيبيويه وحده ، وجاء الكسائي ومعه الفراء والأحر وغيرهما من أصحابه ، فسأله الفراء عن مسألة فلم يكده يجيبه عنها حتى قال له : « أخطأت »
وسأله عن ثانية فأجابته ، فقال له : « أخطأت »
ثم سأله عن ثالثة وقال له : « أخطأت »
فقال له سيبيويه : « هذا سوء أدب منك . »
فقال الفراء لصاحبه ساخرًا : « يظهر أن في هذا الرجل عجلة وحدة ! »

وسأله « الأحر » عن عدة مسائل فكان يخطئه في كل

جواب يفوه به .

قالوا - « فلم ير سيبيويه إلا أن يكف عن مناقشتها »
وهنا يقول له الكسائي - ولعلك تلمح في جملته معنى
التحقير والاستصغار - « يا بصري كيف تقول :
كنت أظن العقرب أشد لسعة من الزنبور فاذا هو هي ؟
أو فاذا هو إياها ؟ »

قال - « أقول فاذا هو هي . »
فأقبل عليه الجمع فقالوا : « أخطأت ولحنت »
وفي هذا مثال آخر من أمثلة من التهويش والتحامل
على سيبيويه .

وهنا يقول يحيى بن خالد بن برمك . « هذا موضع
مشكل فن يحكم بينكم ؟ »
فيقول الكسائي : « هؤلاء الأعراب على الباب »
قالوا : « فأدخل أبو الجراح ومن وجد معه ممن كان
يأخذ منه »

فقال لهم الكسائي . « كيف تقولون : قد كنت

أحسب أن العقرب أشد لسعة من الزنبور فاذا الزنبور
اياها بعينها . »

فقال طائفة — « فاذا الزنبور هي . »

وقالت أخرى — « فاذا الزنبور اياها بعينها . »

فقال الكسائي : « هذا خلاف ما تقول
يا بصرى ! »

وهنا يقبل « يحيى » رب الدار على « سيبويه » - وهو
الغريب المستوحش - فيقول له ما يشعره بأن صاحب
الدار من رأى الكسائي وشيعته :

« قد تسمع أيها الرجل »

فلا يكاد يسمع سيبويه هذه الجملة حتي يستكين .
ويسرع الكسائي إلى « يحيى » فيقول له حتي يطمئن على أن
المناظرة قد انتهت وأن الغلبة قد تمت له :

« أصلح الله الوزير ، لقد وفد عليك من بلده مؤملا
فإن رأيت ألا ترده خائبا ؟ »
فيأمر له يحيى بعشرة آلاف درهم .

وكانما ألف الكسائي أن يصطنع الناس بالمال ليضمن
لنفسه إقرارهم بزعامته العلمية التي يسعى إلى الانفراد بها
عند الخليفة . ولعله حسب أن هذه المنحة تنسى سيئويه
تلك الصدمة العنيفة التي سببها له .

على أن الكسائي طالما اشترى بالمال ألسنا وذمما .
ألا ترى إلى الأخفش يذهب إلى الكسائي غاضبا
متحمسا — بعد أن أخبره سيئويه بما حدث له معه — فيسأل
الكسائي وهو بين تلاميذه ويخطئه في كل جواب يقوله ،
فيهم تلاميذ الكسائي بضربه ، فيمنعهم الكسائي من ذلك
— خوفا من ذبوع أمره ويقبل عليه فيعانقه متحيبا إليه ويعهد
إليه بتعليم أولاده ، ويرشوه بالمال فينسيه بذلك ثأر صديقه
سيئويه ؟

ولقد كان من بين تلاميذ الكسائي من هو أعلم منه
وأجدر بالزعامة — كالفرّاء مثلاً — وما كان مثل الفرّاء
ليقبل أن يكون تلميذاً للكسائي لولا طمعه في جاهه وماله
وأمله في أن يتصل بالخليفة — بفضل صحبته له — وقد
تم له ما أراد بعد ذلك .

وربما استشهد لنا أحد الأدباء الناقدين بقول الفرّاء
نفسه للتدليل على فضل الكسائي :
« قال لي رجل : ما اختلافك إلى الكسائي وأنت مثله
في النحو ؟ »

فأعجبني نفسي فأبته فناظرته مناظرة الأكفاء فكأنني
كنت طائراً يغرف بمنقاره من البحر .

فإن أمثال هذه المدائح يجب أن تقم على وجهها
الصحيح ، فهي نوع من تعلق ذوى النفوذ طمعاً في جاههم
وتقرباً إليهم .

ألا ترى إلى «ابن الرومي» نفسه — وهو الشاعر الفحل —
يلجئه العوز والفاقة ونكد الدنيا إلى امتداح بيت سخيف قاله
ابن المعتز، حين سأله: «لم لم تشبه مثل تشبيه ابن المعتز في قوله:

وبدا الهلال كزورق من فضة

قد أثقلته حمولة من عنبر»

فتظاهر لهم بأكبار معنى هذا البيت التافه وإعجابه
بما فيه من تشبيه متكلف وعجزه عن محاكاته — علقاً نقائله
لرفعة وسمو منزلته !

ولقد سئل الفراء نفسه عن الكسائي — بعد موته — فقال:

« مات الكسائي وهو لا يحسن حديثاً وبئس وأن
المفتوحة (١) ».

ولا نظننا متحاملين على الكسائي حين ثبت هنا
ما يرويه بعض المؤرخين عنه من أنه « كان متهتكاً فاجراً » ونحن

(١) ومن العجيب أن أحدم قال في الفراء نفسه بعد موته — « مات الفراء وفي
قصة ثوبه من حق » وإن كان الفرق بين البليتين واضحاً .

نروى ذلك بشيء من التحفظ فلا نصحه ولا نفيه ،
فعله من دسائس البصريين ، على أننا لا نستبعده ، فليس
اتصاله بالخليفة وتعهده أبنائه بالتريية مما يعصمه من اقرار
الدنيا والآثام ولو سراً .

وقد تعلم الكسائي — وهو كبير — وانصرف
سيبويه الى العلم — منذ حداثة نشأته — وأعجب الخليل بن أحمد
بذكائه وكان يرحب به ^(١) ، وقد شهد له أكبر علماء النحو
بالتفوق والفضل ، واستعان بكتابه خصومه أنفسهم ،
فقرأ الكسائي على الأخفش كتاب سيبويه وأعطاه
سبعين ديناراً — أجراً على ذلك — وقد وجد بعضه تحت
وسادة الفراء التي كان يجلس عليها ، كما قال النحاس .

رأى النحاة في هذه المسألة

قالوا : « وأما سؤال الكسائي لجوابه ما قال سيبويه
وهو : « فإذا هو هي » هذا هو وجه الكلام مثل : « فإذا

(١) كان الخليل يقول له : « اعلا برأى لا يمل مجلسه » ولم يكن يقولوا غيره .

هي ييضاء » ، « فإذا هي حية » وأما « فإذا هو إياها »
 — إن ثبت — فخارج عن القياس واستعمال الفصحاء
 ولا يمتدُّ به ، كالجزم ببلن والنصب بلم والجر بعلن . وسيدويه
 وأصحابه لا يلتفتون لمثل ذلك وإن تكلم به بعض العرب .

وقد لخص « حازم القرطاجني ^(١) » هذه المناظرة
 في منظومته الجميلة في النحو التي يقول فيها - :

والعرب قد تحذف الأخبار بعد « إذا »
 إذا عنت فجأة الأمر الذي دها
 وربما نصبوا بالحال بعد « إذا »
 وربما رفعوا من بعدها رُبَّما .
 فإن توالى ضميران اكتسى بهما
 وجه الحقيقة من إشكاله غما

(١) هو الامام الاديب « ابو الحسن حازم بن محمد القرطاجني الانصارى »

لذاك أُعيت - على الأفهام - مسألة
 أهلت إلى سيويه الختف والغما :
 « قد كانت المقرب العوجاء أحسبها
 - قدما - أشد من الزنبور وقع حما »
 وفي الجواب عليها - هل : « إذا هوهى »
 أو هل : « إذا هو إياها » - قد اختصما
 وخطأ ابن زياد^(١) وابن حمزة^(٢) في
 ما قل فيها أبا بشر^(٣) وقد ظلما »
 الى أن يقول :

« وليس يخلو امرؤ من حاسد أضْم
 لولا التنافس في الدنيا لنا أضْمَا
 والغبن - في العلم - أشجى محنة علمت
 وأجرح الناس شجوا عالم هضمَا »

(١) القرطبي .

(٢) الكسائي .

(٣) سيويه .

وقد حدث لأبي عثمان المازني ما حدث لسيبويه ، قال :
« دخلت بغداد فالتقيت على مسائل فكنت أجيب
فيها على مذهبي ويخطئونني على مذاهبهم . »
قالوا : « وهكذا اتفق لسيبويه »

وجماع القول أن سيبويه قد هُزم - رغم فضله وعلمه
وكونه في جانب الحق - ولم يكن له بد من السكوت
والرضى بالهزيمة في هذا المجلس الحاقد .

ومثل لنفسك أيها القارئ مجلساً حافلاً بأعيان الدولة
وقادة الرأي فيها ، يجمع - مثلاً - على أن « لم » تنصب ولا تجزم ،
وأنت وحدك تقول : « إنها تجزم ولا تنصب ، وإن العرب
لا تعرف غير ذلك » وهم لا يسمعون لك قولاً ، فأية حجة
تستطيع أن تدلي بها في مثل هذا المجلس المتحامل الذي
ينكر عليك ما لا سبيل إلى إنكاره ؟

كذلك كان موقف سيبويه ، يقرر قاعدة أجمع علماء

النحو على أن خلافها شاذ لا يؤخذ به ، فلا يقبل منه قول .
ولقد كان في لسان سيبويه حبة — كما يقولون —
ولكنها لم تكن السر في هزيمته^(١) فهو لم يقصر في
الكلام ، ولم يكن ذلك المجلس المتحامل عليه في حاجة إلى
خطيب لسن ، بل كان في حاجة إلى آذان واعية وقلوب
لم يفسدها الهوى والغرض .

وهكذا تمت الهزيمة ، فذهب « سيبويه » إلى فارس ،
ولم تطل مدته بعد ذلك .

قالوا : ولما اعتل سيبويه وضع رأسه في حجر أخيه
فبكى أخوه لما رآه — لما به — فقطرت من دمه قطرة
على وجهه ، فرفع سيبويه رأسه إليه فرآه يبكي فقال :
« أَخِيَّيْنِ كُنَّا ، فَرَّقَ الدَّهْرُ بَيْنَنَا .

إِلَى الْأَمَدِ الْأَقْصَى ، وَمَنْ يَأْمَنُ الدَّهْرَ ؟ »

(١) فقد نظر سيبويه بعض العلماء ولم تمنحه حبة لسانه عن الاتصاف عليه ، قال
عمرو بن مرزوق : رأيت سيبويه والاصمعي يتناظران ويقول يونس بن حبيب :
« الحق مع سيبويه وقد غلب ذا - بنى الاصمعي - بله . »

ولقد قضى سيديويه جل حياته في الدرس على خير
أساتذ عصره - لاسما الخليل ويونس - ومات بعد أن ألف
كتابه الخالد - وإن كان لم يدرسه - وختمت حياة هذا العالم
الجليل دون أن يجنى ثمر جهاده .

رحمة الله عليه وعلى شيوخه الجليلين الخليل ويونس :

« تولى سيديويه ، وجاش سيب

من الأيام فاختل الخليل^(١)

ويونس أوحشت منه المغاني

وغـير مصابه النبا الجليل

أتت علل المنون ، فابكام

من اللفظ - الصحيح ولا العليل

ولو أن الكلام يحس شيئا

لكان له وراهم أليل . »

(١) الشرابي ، اللاه .

في مجلس سيف الدولة بين المتنبي وأبي فراس

« وأما أبو الطيب فلم يذكر معه إلا أبو فراس
وحده » ولولا مكانه من السلطان لأخذه .
« ابن رشيق »

(١)

بين المتنبي وأبي فراس (١)

نشأ المتنبي من أصل وضيع ، فقد كان أبوه سقاء بالكوفة ، ولم ينعه أصله الوضيع من أن يتطلع الى أسمى ما يتطلع اليه عظيم من مراتب السؤدد والرفعة ، فجذ في طلب العلم صغيراً وانقطع حامين الى الأخذ عن أعراب البادية ، ثم أكثر من الاطلاع على الكتب والاستفادة من العلماء ، حتى اذا أخذ بحظه من العلم والأدب تطلعت نفسه الى الأخذ بنصيها من المجد واغتصاب الشهرة اغتصاباً من بين برائن الأسود . وكان يتقرب - في أول عهده - الى أعيان عصره وذوى النفوذ فيمدحهم بقصائده ، ليتخذه سُلماً الى ما تطمح اليه نفسه من العظام وربما أثابه بعض ممدوحيه على إحدى قصائده بدينار واحد . (٢)

(١) نشرت بمقتطف نوفمبر سنة ١٩٢٩

(٢) قالوا انه مدح علي بن منصور الحاجب فلم يسطه إلا ديناراً واحداً على قصيدته

الى أولها :- « بان السموس المجاعات غرابيا » والتي منها قوله :

« أظمت الدنيا - فلما جئتها مستقيماً - مطرت على مصابيا - »

فلما اتصل بأبي العشائر - وإلى انطاكية - قدمه
إلى سيف الدولة ، فكان ذلك بدء شهرته الضخمة التي
لا نرى أبلغ في وصفها من قول المتنبي نفسه :
« وتركك في الدنيا دويًا كأنما

تداول سمع المرء أعله العشر »
فقد بلغ المتنبي حظًا من الشهرة لم يكده يظفر به
شاعر عربي - قبله أو بعده - فلا الدنيا وشغل الناس
- كما يقول ابن رشيق - وعنى بشرح ديوانه أكثر من أربعين
أديبًا منهم المعري وابن جني وهما من تعرف علما وأدبا وفضلًا .
وكان المتنبي قبل اتصاله بسيف الدولة - كما يقول
الشعالي - « يمدح القريب والغريب ويصطاد ما بين
الكركي والمندليب »

وقد صحب سيف الدولة نحو عشر سنوات (١) غمره
فيها سيف الدولة بمطائنه الجزيل ، كما اقتن المتنبي في مدحه
الذي خلده به - بين ملوك عصره قاطبة . وأنف المتنبي أن

(١) التحق به سنة ٢٣٧ هـ ثم قارعه ودخل مصر سنة ٢٤٦ هـ

مدح — بعد ذلك — من هم دون الملوك مرتبة ومقاماً
 قترفع عن مدح المهلبى والصاحب^(١) مع سمو منزلتيهما — كما
 أنف أن مدح غيرهما من الأعيان والأمرء

(١) وقد جلب على نفسه عداوة هذين الزعيمين بإحاطته عن مدحهما وترفضه عنهما ، قالوا :
 « ولما قدم أبو الطيب — من مصر إلى بغداد — وترفع عن مدح المهلبى الوزير ذهاباً
 بنفسه عن مدح غير الملوك شق ذلك على المهلبى فأغرى به شعراء بغداد حتى قالوا من عرضه
 وتباروا في هجائه واسمعه ما يكره وتماجنوا به وتلذذوا عليه . فلم يجبه ولم يفكر فيهم .
 وقيل له في ذلك فقال :

إني فرغت من هجيتهم بقول لمن هم أرخص منهم طبقة من الشعراء :

« أرى للشاعرين غروا بنى ومن تأبى حمل الماء المضالا
 ومن يك ذا قم مر مريض يحد مرأً به الماء الزلالا »
 ونقول :

« أفى كل يوم تحت ضيق شوير ضيف يقاوينى ، قصير يطاول
 لسانى بطقى صامت عنه طائل وتلقى يسمى ضاحك منه هازل
 وأنسب من نادك من لا يجيه وأغبط من عداك من لا تساكل
 وما التبه طلي فيهم ، غير انى بغيض إلى الجبال للتلماقل »
 ونقول :

« وإذا اتك ملحق من ناقص ففى الشهادة لى بأنى كمل »

قالوا : « وقد ارسل إليه الصاحب — وقد طمع في زيارة المتنبى إليه باصهار واجرائه
 بحرى مقصوده من رؤى الزمان — وهو إذ ذاك شاب ولم يكن قد استوزر بعد وكتب
 إليه يلاطفه باستقامته وضمن له مشاطرة جميع ماله ، فلم يقم له المتنبى وزناً ولم يجبه على
 كتابه ولا إلى مرابه وقصد إلى عند النوبة . »

قالوا : « فأنذره الصاحب غرضاً يلمس سيئاته وهو أعرف بحسناته . »

وكان في المتنبي صلف وعجرفة واعتداد بالنفس إلى أقصى حد، فكثير أعداؤه وحاسدوه، وكان كلما أمعن في احتقارهم والزراية عليهم، أمعنوا في الكيد له وتلمس العيوب والسقطات.

وكان من أسباب تعاليه عن الناس واحتقاره إياهم أنهم طالما عيروه بضعة أصله^(١) وفاخروه بأحسابهم، فتأصلت فيه طبيعة الاحتقار لهم والحقده عليهم^(٢). ولعل أبلغ ما يمثل

(١) وقد عيروه بذلك - حتى بعد أن وصل إلى ذروة الشهرة - فن ذلك قول بعض الشعراء:

«لبي فضل لشاعر يطلب الفخذ ل من الناس بكرة وعشيا
عاش حيناً يبيع بالكوفة الما .، وحيناً يبيع ماء الحيا»
على أن المتنبي كان يعترف بأن أصله وضع وأن غلظه بنفسه لا بابائه، وقد أشار إلى ذلك عدة مرات نجتزئ منها قوله في رثاء أمه:

«ولولم تكوني بنت احكرم ولله لكان أبك الضخم كوثك لي اما»
وقد قلده فيه قول ابن الرومي في أبي الصقر:

«قالوا أبو الصقر من شيان قات لم كلا لعمري، ولكن من شيان
كم من اب قد علا بآب ذرا شرف كما علت برسول الله عذلت»

(٢) ملا أبو الملاء المعري لرومائه بدم الناس. ولكنه لم يحقد على أحد بل كان — على العكس من ذلك — يتوخى الإصلاح وينشد المثل الأعلى، ولا كفاك فان المتنبي، فقد كان كثيراً ما يحقد عليهم دون أن يتوخى اصلاحهم.

لنا هذه الطبيعة الخاقدة من شعره هو قوله :

« ومن عرف الأيام معرقي بها »

وبالناس روّى رحمه غير راحم

فليس بمرحوم - إذا ظفروا به -

ولافى الردى - الجارى عليهم - بأثم^(١)

ولقد كان المتنبي شديد الأثرة بعيد الأمانة، لا يعنيه إلا نفسه، يرى كل من فى الوجود مسخرّاً له وحده .

فالملوك لم يخلقوا الا ليغمره بجاههم ومالهم ، والجاهير لم تخلق الا تهتف له وتعالى الدنيا اعجاباً بشعره ، وعلماء

عصره لم يوجدوا الا ليناقدوا اقواله ويفردوا له الشروح العديدة ، وشعراء العربية قاطبة لم ينظموا إلا ليتخير من روائعهم ما يحلو له أن ينظمه ويضعه فى صيغته

(١) ومن هذه القصيدة قوله :

« من الحلم ان تستعمل المجهول دونه إذا اتسمت فى الحلم طرق الظلم
وان ترد الماء إلى شطره دم قسقى ، إذا لم يق من لم يراحم »

النهائية ، فكأنما هم يهينون له « مشروعات قوانين » ليصدرها
— بعد ذلك — للناس مراسيم .

وهو في أكثر المعاني التي يسطو عليها — كما يقول
الشعالي — : « يأخذها عبادة ويردها ديباجاً ويرسلها مثلاً
سائراً » . والحق أنك تقرأ شعر المتنبي فتحس كأن صوت
القدر يعلو على الناس قوانين الحياة إملأ .



أما « أبو فراس » فقد نشأ من طبقة الأرستقراطية وبيت
الملك ، وهو — على قرابته من سيف الدولة — شاعر فياض
الشاعرية وأسلوبه — في أكثر شعره — في أعلى طبقات
البلاغة ، وهو من أحب الشخصيات وأظرفها ولشعره جمال
رائع لصدق عاطفته وعنايته بتخير اللفظ وحسن الأداء .
وقد حكم النقاد بتفوقه على ابن المعتز في الشعر — وصدقوا
في حكمهم كل الصدق — فقد أفاد الأسر شاعرية أبي
فراس وأنطقه الألم بأروع وأبدع ما يقوله شاعر

محمّد (١)

قالوا: «وكان المتنبي يشهد له بالتقدم والتبريز ويتحامي جانبه فلا ينبرى لمباراته ولا يجترى على مجاراته، لكنه لم يعدحه ومدح من دونه من آل حمدان تهيباً له واجلالاً، لا إغفالاً واخلالاً»

فأما أن المتنبي كان يشهد له بالتقدم والتبريز ويتحامي جانبه فلا ينبرى لمباراته ولا يجترى على مجاراته، فيرجع الى قرابة أبي فراس من سيف الدولة وما تجرّه عداوته على المتنبي من النكبات.

فقد كان سيف الدولة — كما يقولون — «يعجب جداً بمحاسن أبي فراس ويميزه بالاكرام على سائر قومه، ويستصحبه في غزواته ويستخلفه في أعماله». والمتنبي أحصف من أن ينبرى لمباراة من هذا شأنه، وأجدر أن يتحامي جانبه ويشهد له بالتقدم والتبريز.

(١) وقع أبو فراس في قبضة الروم أسيراً مدة أربع سنوات، وقال في أسره أحسن ما قرأناه له من الشعر صدق عاطقة واحكام أسلوب وقته لاه. وليس يتسع هذا المقام للاستشهاد بشيء من ذلك.

وأما أن المتنبي « لم يمدح أبافراس تهبيا واجللا »
فهو كلام يحمل بنا أن نفهمه على وجه الصحيح ، فهو بلغة
الساسة أشبه ، وماذا ينتظر معاصروه أن يعلل ترفعه عن
مدح أبي فراس . وبم يحيبهم إذا سألوه : - « لم لم تمدح
أبافراس وقد مدحت من دونه من آل حمدان ؟ » .
أكان يقول له : « إنني لم أمدحه اغفالا واخلالا » أم يقول
لهم : « ان شعره لم يعجبني » . أم يصارحهم برأيه الذي
اضطر الى الافضاء به — بعد ذلك — حين صرح الشر
وانكشف الغطاء فقال :-

« أعيذها نظرات منك صادقة

أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم »

ليس أمامه مايزعمه إلا أن يقول إنه يتهبه . ولو أن

سائل أخيشا همس في أذنه :-

« وكيف مدحت سيف الدولة إذن ؟ ألا تهبه

أيضا ؟ »

لما أجابه المتنبي حينئذ بأكثر من ابتسامة الهازي^١
العابث أو إعراضة المتخلص الهارب . وكيف نرضى بهذا
التعليل الذي يقنع به الثعالب وغيره ، ونحن نرى المتنبي قد
مدح من أسرة حمدان من هم دون أبي فراس مقاماً كما مدح
سيف الدولة - رأس الأسرة الحمدانية - وهو أجدر بالتهيب
والإجلال إن كان المتنبي ممن يتطرق الى نفسه تهيب أو
إجلال لكائن من كان .

لقد كان أبو فراس شاعراً ، وشاعراً فخلاً ممتازاً ،
وحسبك بهذه الميزة سبباً ينفر المتنبي من مدحه . ولا تنس
أن المتنبي كان يتطلع الى حمل لواء الزعامة الأدبية في عصره
ويرى أن ذلك أيسر ما يجدر به أن يفعله ، لأن نفسه الوثابة
كانت تتوق الى ما هو أسمى من زعامة الشعر وأعظم
خطراً^(١).

(١) كانت نفس المتنبي تطمح الى الملك أيضاً ، وقد اشار الى ذلك مراراً مجتزئاً
منا بقوله غلباً كاقور الاخيدى :

« وغيركم ان يوروك راجل فيرجع ملكاً لعراطين واليا
قد تهب الجيش الذي جاء غازيا لملك الفرد الذي جاء غاليا »

فكيف يشيد بذكر شاعر كآبي فراس - يزاحمه
في زعامة الشعر (١) ؟

الحق أن المتنبي وأبا فراس لم يكن من سبيل الى
التأليف بينهما ، فقد كان أبو فراس يرى في المتنبي رجلا
من السوقة رفعه الشعر درجات فوق ما يستحق ، كما كان
المتنبي يرى في أبي فراس أميراً ذكياً رفعت الامارة من
شعره درجات فوق ما يستحق ، وأكسبته شهرة في الأدب
لم يكن ليصل اليها لولا قرابته ومكانته من سيف الدولة .
فكان ينطبق عليهما قول أبي الاصبغ العدواني :
« فخالني دونه ، بل خلته دوني »

فأبو فراس يرى فيه ابن سقاء مزهواً بشعره ، شامخاً
بأنفه الى السماء ، متعاليّاً في غير جدارة بالعلاء ، بالغاً من سيف
الدولة مكانة لم يبلغها سواه . والمتنبي يرى فيه شاعراً يناقسه

(١) ولقد قد يحمله المتنبي - فيمن يحمل من شعراء عصره للمهزبين - وليس اهل على
ذلك من تصدى جمهرة كبيرة من المصاحفين والمؤلفين والمؤرخين له حتى طبقت
شهرته الاتق وملاّت الدنيا في حين لم يصل ابو فراس الى شيء يذكر من هذه الخفاوة
المعجبة .

ويغار منه ويحسده على مكائنه ويدني خصومه من مجلسه ،
فبأي لسان يمدحه المتنبي ؟ وكيف يهش له أبو فراس أو
يصفيه الود خالصاً ؟

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، فقد خلق المتنبي
بسبب تعاليه وصلفه — كما أسلفنا — كثيراً من الحساد
والخصوم وكان يزيد في حسدهم له ما يروونه من إقبال سيف
الدولة عليه ، فلم ينوأ عن الوقعة والدس واتخذوا من إدلاله
على سيف الدولة ^(١) مطعناً ينفذون منه إليه .

فهذا أديب يكيد له عند سيف الدولة فيقول له — حين
ينشده إحدى قصائده وهو قاعد — :

لو أنشدها قائماً لأسمع ، فإن أكثر الناس لا يسمعون
لينبه سيف الدولة الى سوء أدب المتنبي فيجيبه المتنبي على هذا
الدس الخبيث يديهته الحاضرة الموفقة ، أما سمعت أولها :

(١) كانت المتنبي كثيراً ما يمدح نفسه في القصائد التي يمدح بها سيف الدولة فأطاع

بذلك حساده وخصومه عليه

« لكل أمرىء من دهره ما تعودا »
فيخر من جاسده بذلك (١)

وهذا شيخ يحسد المتنبي على عطاء أجزله له سيف
الدولة حين قرأ قصيدته التي فيها قوله :
« يأبها المحسن المشكور من جهتي

والشكر من قبل الاحسان لاقبلي »

فلا يطيق مغالبة حسده بل يظهره أمام سيف الدولة
فيمنحه من العطاء ما يخفف به موجدته على المتنبي .
وهذا ابن خالويه — مؤدب سيف الدولة وأحد شيوخ
المدرسة القديمة في عصر المتنبي — لا يألو جهداً في تنقصه
وثلبه ، فقد كانت عدواتهما مزدوجة ، فهي عداوة بين
متنافسين وعداوة بين مدرستين كذلك . فقد كان ابن

(١) قالوا : ان المتنبي اشهد سيف الدولة قصيدته التي اولها « لكل امرىء من
دهره ما تعودا »

فلما عاد سيف الدولة إلى داره واستلمه اياها اتسهما قاعاً ، فقال بعض الجاهلین —
يريد ان يكيد ابا الطيب — : « لو اشدها قاتنا لاسمع ، فان اكثر الناس لا يسمعون ! »
قال ابر الطيب : —

اما سمعت اولها : « لكل امرىء من دهره ما تعودا ؟ »

خالويه زعيم الجامدين في اللغة والافاضة وكان المتنبي زعيماً من زعماء التجديد فيهما جميعاً . كان ابن خالويه يرى نفسه خادماً للغة الأئمة ، وكان المتنبي يرى نفسه سيدها والمتصرف فيها والمجدد في أساليبها وأوضاعها . (١) كان ابن خالويه يُعنى نفسه بالقياس وتتبع ما ورد عن العرب وما لم يرد ، حينما كان المتنبي مطلقاً نفسه من هذه القيود ، يختار منها ما يلائم ذوقه من الصيغ اللفظية والبيانبة ، هازئاً بانصار الجلود من معاصريه ، واثقاً من سلامة ذوقه وصفاء طبعه ، ينشدهم هذا البيت الذي يعبر عن نفسه عن أحسن تعبير :

« أنام ملء جفوني عن شواردها

ويسهر الخلق جراها ويختصم . »

وليست خصومة هؤلاء المقربين عند سيف الدولة للمتنبي بالخطب اليسير ، فقلما اعتورت السهام غرضاً إلا كلمته حتى يهوى ما اشتد من قوته — وقد شعر المتنبي بمخطر

(١) قال المتنبي يتخذ ابن الرومي نموذجاً في التجديد والافتتان في الالفاظ والمعاني

حساده ومنافسيه وظهر أثره في بعض قصائده ، ومن ذلك قوله لسيف الدولة :

« أزل حسد الحساد عني بكتبهم

فأنت الذي صيرتهم لي حسداً »

وقد انتهت هذه السائس كلها بالنتيجة الطبيعية ، فأحفظت سيف الدولة عليه ، وجعلته يعرض عنه — بعد اقبال — وانتهت هذه المؤامرات المتوالية بتغريب المتنبي ، ونفوره من سيف الدولة وسفره الى كافور هرباً من هذا الجو الموبوء بالسائس والمكائد الخبيثة

ويظهر لنا أن أعداء المتنبي أفلحوا في تنفير أبي فراس منه قبل أن يفلحوا في تنفير سيف الدولة — وكان أبو فراس كما أسلفنا مستعداً لذلك . فلما امتلأت نفسه حقداً على المتنبي ، تولى الكيد له عند سيف الدولة الذي يحبه ولا يزد له قولاً .

قالوا : وكان أبو فراس يقول لسيف الدولة « إن هذا المتسمى كثير الدلال عليك ، وأنت تعطيه كل سنة ثلاثة آلاف

دينار على ثلاث قصائد ، ويمكن أن تفرق مائتي دينار على
عشرين شاعراً يأتون بما هو خير من شعره ^(١) . وثمة
امتلاّت نفس سيف الدولة بأمثال هذه الوشائات فأعرض
عن المتنبي وظهر اعراضه وإضحاً جلياً في ثلاث مناسبات :
أولاهـا : حين عاد المتنبي إليه بعد ذلك — وكان غائباً .
والثانية : حين أنشده قصيدته الرائعة التي أولها « واحر
قلباه من قلبه شيم » . والثالثة حين ناظره ابن خالويه في مجلسه .

وما كاد المتنبي يلمح إعراض سيف الدولة ويتعرف
سر هذا الإعراض حتى دخل عليه وأنشده قصيدته التي
يقول فيها :

« وما لي إذا ما اشتقت أبصرت دونه
تنائف لا أشتاقها وسبابها
وقد كان يدني مجلسي من سمائه
أحدث فيها بدرها والكواكبها »

(١) لعلك تلح في هذه الجملة رأى ابن فرس في المتنبي ، وهو يؤيد ما ذكرناه من قبل

حنانيك مسئولاً ، وليك داعياً
وحسبي موهوباً وحسبك واهباً
أهذا جزاء الصدق ، ان كنت صادقاً
أهذا جزاء الكذب ان كنت كاذباً ؟
وان كان ذنبي كل ذنب ، فإنه
محا الذنب كل المحو من جاء تائباً »

قالوا : فأطرق سيف الدولة ولم ينظر اليه كمادته ،
فخرج المتنبي من عنده متغيراً .

(٢)

مناظرة المتنبي وأبي فراس^(١)

لك أن تسميها مناظرة ولك أن تسميها مهارة ، بل
سميها — إن شئت — منافرة ، أما نحن فلا نراها إلا مؤامرة .
نعم فهي مؤامرة محكمة دبرها أعداء المتنبي ولم يألوا في
تدبيرها جهداً ، رغبة في هدمه والقضاء عليه . ولم يدبروا
هذه المؤامرة المجرمة لهدم شهرته الأدبية وحدها كما رأينا
في مناظرة « الحمداني والخوانساري »^(٢) وفي مناظرة
« الكسائي وسيبويه »^(٣) بل كانوا يرمون إلى أبعد من
ذلك ، فقد قصدوا بها إلى غرضين ، أولهما أن يهزموه في
مجلس سيف الدولة ، وثانيهما أن يقتلوه غيلة — بعد
خروجه من عنده — بل لقد تم جماعة بقتله في حضرة سيف
الدولة نفسه .

وقد رأى القراء — في مقالنا السابق كيف أعرض

(١) نشرت بمقتطف ديسمبر سنة ١٩٢٩

(٢) لرجع لك « ص ١٨ »

(٣) لرجع لك « ص ٢٨ »

عنه سيف الدولة - بعد إقبال وكيف أفلحت دسائس خصوم المتنبي - وعلى رأسهم « أبو فراس » و « ابن خالويه » - في تنفير مبيف الدولة منه ، فقابله متجهما وحاول المتنبي عبثاً أن يترضاه بقصيدته الرائعة (١) فلم يجد إلى ذلك سبيلاً فخرج من عنده كاسف البال محزوناً ، وكان هذا الاعراض أكبر أثر ظاهر لنجاح خصوم المتنبي وأعدائه وأول ظفر باهر لفوز السعيات والدسائس عند سيف الدولة الذي لم يكن ليصيح من قبل الوشاة أو يتأثر بدسائسهم ، أو الذي كان - على الأصح - لا يكاد يصغى إلى قول واش حتى ينصرف عنه متى سمع قصيدة جديدة من مدائح المتنبي الخالدة .

أما الآن فقد تغير عليه قلبه وأصبح لا يقبل عليه إلا ريثما يضاعف سخطه ويمعن في النكايه به . قالوا :
« وكان من عادة سيف الدولة إذا تأخر عنه مدبجه شق عليه وأحضر من لا خير فيه وتقدم اليه بالتعرض له في

مجلسه بما لا يحب وأكثر عليه مرة « فكان ذلك سبباً في نظم
« ميميته الفذة » التي نحن بصددھا في هذا الفصل .
ولقد تجلى في هذه المرة إعراض سيف الدولة وتحيزه
لخصوم المتنبی، أكثر مما تجلى في إعراضه الاول .

وقد عرف المتنبی سر هذا الاعراض فأعد عدته ونظم
ميميته الرائعة فأودعها كل ما أوتي من قوة ومقدرة في
الدفاع عن نفسه دفاع الیائس المستمیت ، ولم يتورع عن
مهاجمة الأمير « أبی فراس » الذي طالما أظهر له التهيب
وزعم أنه لم یجروا علی مدحه « إجلالاً » لا « إغفالاً »
ماذا ؟

بل ذهب الى أبعد من ذلك، فهاجم سيف الدولة نفسه
ولم یتهيب وقرعه أشد تقریع .

ألا ترى اليه يعاتبه فيقول له مقرعاً :

« كم تطلبون لنا عيباً فيمجزمكم

ويكره الله ما تأتون والكرم

ما أبعد العيب والنقصان عن شرفي
أنا الثريا ، وذان الشيب والهرم «
ثم يتهدده بالرحيل فيقول :-

« أرى النوى تقتضيني كل مرحلة
لا تستقل بها الوخَّادة الرُّسْمُ
لئن تركت « ضميراً »^(١) عن ميامنا

ليحدثنَّ - لمن ودعتهن - ندم
إذا ترحلت عن قوم - وقد قدروا
ألا تفارقهم - فالراحلون هم . «

ويقول :

« شر البلاد بلاد لا صديق بها
وشر ما يكسب الانسان ما يصم «
ويعرض بأبي فراس في قوله :
« أعينها نظرات منك صادقة »

أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم «

(١) « ضمير » اسم جبل على يمين طالب مصر من الشام ، وهو قريب من دمشق .

ويقرع منافسه بقوله :

« بأى لفظ تقول الشعر زعنفة

تجوز عندك لا عرب ولا عجم »

ويفخر على جميع الحاضرين فيقول :

« سيعلم الجمع — ممن ضم مجلسنا —

بأنني خير من تسعى له قدم ! »

الى آخر ما قال .

الحق أن المتنبي لم يكن فى هذه المرة شاعراً خصب
بل كان فارساً يتأهب لخوض غمار موقعة حرية حامية
الوطيس مستهيناً بكل ما يلقاه فيها من أذى موطناً نفسه على
كسبها أو الاستشهاد فيها .

ولقد خاطر المتنبي بنفسه فى هذه المرة وغرر بها
— وهو الذى الحازم الحصيف — وركب مركباً وعرّاً ، وكأنه
كان يضع نصب عينيه قوله :

« إذا لم يكن إلا الأسنّة مركباً

فا حيلة المضطر إلا ركوبها . »

وقوله :

« غير أن الفتى يلاقى المنايا
كالحات ولا يلاقى الهوانا
وإذا لم يكن من الموت بدء
فمن العجز أن تكون جباناً »
ولقد صدق في قوله :

« لقد تصبرت حتى لات مصطبر

فالآن أقحم حتى لات مقتحم »

على أن المتنبي - رغم جرأته - قد أظهر في هذا المقام
براعة فائقة وحذقاً ممتازاً عجيباً، فكان كالربان الماهر يغالب
العاصفة الهوجاء بكل ما أوتي من يقظة ودربة وحزم .

لقد كان يعرف أن سيف الدولة مغيظ منه محقق عليه،
وأن خصومه متأهبون لنضاله والكيده ، وأنهم لم يصلوا
إلى إيفار سيف الدولة عليه إلا بما أدخلوا في زروعه من تعاليه
عليه وعجز فته وسوء أدبه ومدحه نفسه إلى جانب مدحه إياه . (١)

(١) قالوا : « وكان المتنبي يتعالى على سيف الدولة وكان سيف الدولة يتناظر من
تعاظمه ويخفو عليه إذا كلمه والتنبي يجيه في أكثر الاوقات ويتناهى في بعضها . »

كان المتنبى يعرف ذلك ، ولكنه أبى إلا أن يُرَبِّي على
الغاية في مناوأة خصومه ، فكال المدح لنفسه ولسيف الدولة
بأوفى مكيال ، ورفع نفسه الى منزلة قلما كان يزعمها لنفسه
في كل مدائح السابقة رغم ما يعرفه من حرج الموقف ودقته .
ولعل أول ما يستدعى انتباهنا في هذا المجلس
الحاشد أمران :

قوة المتنبى ويقظته .

وبديهة أبي فراس وفضلته .

فقصيده الميمية هذه اذا أخذتَ برأى القائلين — بأنه
ارتجل أكثر أبياتها — تدل على قوة خارقة . واذا أخذتَ
برأى القائلين — إنه أعدها من قبل — تدل على يقظة مذهشة
وعلى تنبؤ عجيب بما توقع حدوثه من خصومه ، كما تدل
على أنه كان في هذه المرة

« الأملئ الذى يظن بك الظن

كأن قد رأى وقد سمعا »

ولعل الجمع بين الروایتين هو الأقرب للعقل ، فقد

نظم المتنبي قصيدته وتوقع أشباه هذه المفاجئات فأعد لها
عدته ، وساعدته نفسه الثائرة على ارتجال أبيات قليلة
دفعه الى ارتجالها ذلك الظرف الحرج الدقيق^(١)

ولقد كاد يفتك بالمتنبي خصومه في حضرة سيف الدولة

(١) ولنا بذلك تكرر على المتنبي قدرته على الارتجال وسرعة البديهة ، فقد شهد له
التقاد بذلك وثبتت الحوادث قدرته السجية على الارتجال ، فمن ذلك ما يروونه عنه
وإن قد اتشد بعض أبيات ولم يظهر معنى البيت الأول لقوم كانوا في مجلس سيف الدولة فقالوا :
« أتيت بمنطق العرب الاصيل ولدت بقدر ما عاينت قبل
فما رننه كلام كان منه بمنزلة النساء من البوم
وهنا البر مأمون التشظى وانت اليف مأمون الطول
وليس يصح في الاقناع شيء إذا استأج النهار إلى دليل »
ومن ذلك ما يروونه من أن بعض اصداقائه طلب إليه ان يصف له حادثة وقعت له
حكاه المتنبي في الوزن والقافية فقال صاحبه : « لا ، بل الامر فيها اليك ،
فأخذ ابو الطيب ، درجا واخذ صاحبه درجا آخر يكتب فيه كتاباً ، فقطع عليه ابو الطيب
الكتاب واتشد ارجوزته المشهورة التي اولها : « ومزول ليس لنا بمنزل »
واحب ان يرجع اليها القارىء في ديوانه .
وقد قال ابن رشيق في ذلك : — وكان ابو الطيب كثير البديهة والارتجال الا ان
شعره فيها نازل عن طبقته جيداً ، وهو لعمري في سعة من النظر إذا كانت البديهة كما
يقول ابن الرومي :

« نار الروية نار جد متضجة والبدئية نار ذات تلويح
وقد يفضلها قوم لسرعتهما لكنها سرعة تمضي مع الريح »

— كما أسلفنا — وهمَّ جماعة بقتله في مجلس سيف الدولة
— لشدة إدلاله واعراض سيف الدولة — فلما وصل في
إنشاده إلى قوله :

« يا أعدل الناس ألا في معاملي
كيف الخصام وأنت الخصم والحكم ؟ »
تصدى له أبو فراس فقال له :

مسخت قول دعبل وادعيته ، وهو :
« ولست أرجو انتصافاً منك ما ذرفت
عيني دموعاً — وأنت الخصم والحكم . »
وليت شعري كيف يكون الابداع والتجميل اذا عدَّ
هذا مسخاً وتشويهاً ؟ ولكنه الهوى والغرض والتحامل .
وقد رأى المتنبي أن أبلغ ما يرد به على انتقاده هو
أن يصارحه برأيه فيه الذي طالما كتمه وأخفاه عنه ،
فأنشد سيف الدولة :

« أعيذها نظرات منك صادقة
أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم . »

قالوا: فعلم أبو فراس أنه يعنيه فقال :
« ومن أنت يا دعي كندة حتى تأخذ أعراض أهل
الأمير في مجلسه ؟ »

ولكن المتنبي لم يعبأ به ولم يلتفت إليه بل استمر
في إنشاده الى أن قال :

« سيعلم الجع — ممن ضم مجلسنا —
بأنني خير من تسعى به قدم
أنا الذي نظر الأعمى ^(١) الى أدبي
وأسمعت كلماتي من به صمم »

قالوا: فزاد ذلك غيظاً في أبي فراس وقال :
« سرقت هذا من عمرو بن عروة ابن الورد في قوله :

(١) قالوا ان ابا العلاء حين قرأ هذا البيت قال : « كأنما عانى المتنبي هذا البيت »
ولقد كان اعجاب ابي العلاء بالمتنبي عظيماً جداً ، واستدل بعضهم بهذا الاعجاب على
تفوق المتنبي عليه ، وهو استدلال بعيد عن الصواب . فقد كان اعجاب للمرى بأبي الطيب
من قبيل اعجاب العظيم بالمعظم والد بالند بالند لا اعجاب بالتليذ بالاستنذ . وان تأثر به في
صباه . واعتدنا ان المتنبي — على عظمته وعلى اجلالنا له — إذا تورط للمرى شالت كفته
ورجعت كفة ابي العلاء ، وفضله في كثير من المزايا للبحر التي اختص بها المرى
— او كلا — من بين شعراء العربية طلبة ، وليس هنا مقام التفصيل والموازنة بينهما
وانما هو رأى اجتله عرضاً .

« أوضحت من طرق الآداب ما اشتكلت
دهراً وأظهرت إغراباً وإبداعاً
حتى فتحت بإعجاز خصصت به
- للعمى والعم - أبصاراً وأسماعاً »
ولما وصل إلى قوله :

« والخيل والليل والبيداء تعرفني
والحرب والضرب والقرطاس والقلم »
لم يستطع منافسه أبو فراس أن يخفى موجدته عليه
وأبى إلا أن يصارحه بالكيد ويدسّ له علناً عند سيف الدولة
فقال له :

وما أبقيت للأمير إذا وصفت نفسك بالشجاعة
والفصاحة والرياسة والسماحة ؟ تمدح نفسك بما سرقت من
كلام غيرك وتأخذ جوائز الأمير ؟
أما سرقت هذا من الهيثم بن الأسود النجعي :

« أعاذتلى كم مهمه قد قطعته
أليفَ وحوشٍ ساكنا غير هائب
أنا ابن الفلا والطمع والضرب والسرى
وجود المذاكى والقنا والقواضب
حليم وقور فى البلاد ، وهيتى
لها فى قلوب الناس بطش الكتائب
ولعلك تلمح فى قول أبى فراس : « وتأخذ جوائز
الأمير » سرّاً من أسرار حقه على المتنبي .
ولما أنشد المتنبي قوله :
« وما انتفاع أخى الدنيا بناظره
إذا استوت عنده الأنوار والظلم ؟ »
قال أبو فراس : وسرقت هذا من قول معقل العجلي :
« إذا لم أميز بين نور وظلمة
بمعنى ، فالعينان زور وباطل ؟ »

ولمحمد بن أحمد بن أبي مرة المكي مثله :
« إذا المرء لم يدرك بعينه ما يرى
فما الفرق بين العمى والبصراء ؟ »

قالوا : « وغضب سيف الدولة من كثرة مناقشته في
هذه القصيدة وكثرة دعاويه فيها ، وضربه بالدواة التي بين
يديه » ولو كان المتنبي -- كغيره من الناس -- لانهزم
مرغماً بعد أن رأى روح الخصومة والدد مهيمته على
هذا المجلس ، ولكن المتنبي ممن لا تزيدهم الخصومة إلا قوة
على قوته ، ومن الناس من تشحذ الخطوب خاطرهم
وتضاعف من يقظتهم وتقوى من حجتهم ، والمتنبي من
هذا الفريق . قالوا : فقال المتنبي للحال :

« إن كان سركم ما قال حاسدنا
فما لجرح — اذا أرضاكم — ألم »
فلم يكذ يسمعه سيف الدولة حتى انطلقت أساريه
وبدا البشر على وجهه .

وأراد أبو فراس أن يسير على هذه الوتيرة فقال له :
أخذت هذا من قول بشار :

« اذا رضيتم بأن نجنى ، وسرکم
قول الوشاة، فلا شكوى ولا ضجر »

ومثله لابن الرومی : —

« اذا ما الفجائع أكسبنی رضاك فإلدهر بالفاجع . »
فلم يلتفت سيف الدولة الى ما قال أبو فراس وأعجبه
بيت المتنبي
قالوا :

ورضى عنه فى الحال وأدناه إليه وقبل رأسه وأجازه
بألف دينار ثم أردفه بألف أخرى فقال المتنبي :
« جاءت بدنانيرك مختومة عاجلة ألفا على ألف
أشبهها فلك فى فيلق قلبته صفًا على صف . »

(٣)

بين المتنبي وابن خالويه

« ثوب ابن خالويه على المتنبي ، فضرب وجهه
بمفتاح كان معه فشجه ، وخرج المتنبي ودعه يسبل على
ثيابه »

تحامل سيف الدولة

« رأيتم لا يصون المرء جلركم ولا يد على مرعاكم اللين
جواه كل قريب منكم ملل وحظ كل عجب عندكم طفن »
« المتنبي »

رأينا — في الفصل السابق — كيف تألب خصوم
المتنبي عليه وكيف أجمعوا أمرهم على الكيد له : وعلى رأسهم
أبو فراس الذي تصدى لنقد المتنبي وتريف كل معانيه
وإظهار سرقاته من الشعراء وقد بدا التحامل على المتنبي
واضحاً جلياً ولولا أن بديهته الحاضرة وبقظته وحسن حياته
قد أبقته من هذا المأزق لكان له مصير آخر لا يعلمه

إلا الله وحده .

ولقد أفلح خصوم المتنبي في مؤامرتهم وتم لهم إبعاد
صدر أميره عليه فضربه سيف الدولة بالدواة فقال المتنبي : —

« إن كان سركم ما قال حاسدنا

فالجرح إذا أرضاكم ألم . »

ولم يكد سيف الدولة يسمع منه هذا المعنى الطريف
حتى ابتسم له ورضى عنه وأجازه ولم يصنع إلى مطاعن أعدائه
ولم يستمع إلى كلام أبي فراس ، فكان ذلك الرضى نهياً لمن في
المجلس عن التمدادى فى عدائهم للمتنبي وأمرأهم بالكف
عن تحديه وثلبه . فأنت ترى أن سيف الدولة هو دائماً محرك
القوم ومسكنهم ، وموجه هذه الأشباح والصور فى الطريق
التي يختطها ويرضاها ، فإذا شاء أنطقها وإذا شاء أسكتها .
وأنت ترى أن فى يده وحده « مفتاح الخطر » وأن ابتسامه
واحدة منه كانت كفيلة بإنصاف المتنبي وإدالته من خصومه
ولكن سيف الدولة لم يفعل ، وأبى — فى هذه المرة —

إلا أن يتجهم للمتنبى ويناصبه العداء، كما ترى في هذا الفصل.

ولقد كان هذا الاعراض الواضح — بعد ما لقيه المتنبى من قبل — من إغراض سيف الدولة — مسبب تغريب المتنبى يائساً منه واثقاً أن السائس قد أوغرت صدره عليه فلم يعد التودد له نافعاً. ولم يكن المتنبى يجهل أن ابن خالويه لم يشج رأسه إلا بساعد سيف الدولة وأنه ما كان ليجرؤ على ذلك لو لم يأمن عقاب أميره.

ومثل لنفسك رجلاً كالتنبى — في مجلس سيف الدولة — يجادل ابن خالويه فينتصر عليه ويهزمه، فلا يجد ابن خالويه ما يرد به عليه إلا أن يضرب رأسه بالمفتاح فيشجبه، ثم يرى سيف الدولة راضياً بهذا الجواب الظالم، ولا يتحرك أحد من الحاضرين لنصرة المتنبى.

فلا غرو اذا قال المتنبي بعد أن فارقهم :

« رأيتمكم لا يصون العرض جاركم

ولا يدر على مرعاهم اللبن »

ولقد طالما حذر المتنبي سيف الدولة عواقب هذا

التعامل ، ولوح له بالفراق ، فما غير ذلك من سلوكه معه .

ولقد قال المتنبي في إحدى قصائده :

« اذا ترحلت عن قوم - وقد قدروا

ألا تفارقهم - فالراحلون هم . »

وقال له - من قصيدة أخرى :

« أبا الجود أعط الناس ما أنت مالك

ولا تُعْطِينَ الناس ما أنا قائل (١) »

(١) قال ابن جني :

كنت قرأت ديوان أبي الطيب المتنبي عليه ، فقرأت قوله في كثور ، القصيدة التي أولها :

« اغالب فيك الشوق ، والشوق اغلب وأعجب من ذا العجز ، والوصل أعجب »

حتى بلغت قوله :

« ألا ليت شمرى هل أقول قصيدة

وفي ما يزود الشعر عن أقله

وأخلاق كثور — إذا شئت مدحه

قلت له :

« يمر على كيف يكون هذا الشعر في مدوح غير سيف الدولة ! »

ولكن سيف الدولة لم يصغ اليه بعد أن تمكن الوشاة
من إفساد العلاقات بينهما .

ولم ينس المتنبي — طول حياته — أثر هذه الوشايات
والسائس ، وقد أشار إليها — بعد ذلك — في عدة
مناسبات ، منها قوله في ميميته المشهورة التي قالها بعد
تغريبه إلى مصر :

« إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونهُ
وصدق ما يعتاده من توهُمٍ
وعادى محببهِ — بقول عدائِهِ —
وأصبح في ليل من الشك مظلم »
وفي هذه القصيدة يقول :

« أصادق نفس المرء — من قبل فعلهِ —
وأعرفها في فعلهِ والتكلم »

فقال : « حذرتاه فافزع ، الست القاتل فيه
أنا الجود إعط الناس ما أنت مالك ولا تطعن الناس ما أنا قاتل
فهو الذي أعطاني كلفوا بسوء تدبيره وثقة تميزه ! »
نقول : « وفي هنا الحديث — من الآثم والهموم والنور — ما لا يخفى على القاري »

وأحلم عن خلى ، وأعلم أنه

— متى أجزه يوماً عن الحلم — يندم . »

وقد أشار الى ذلك — فى نونيته المعروفة — حين

بلغه أن حساده وشائثيه قد نعوه الى سيف الدولة — فقال

متهمك بهم وإن كان تهكماً لاذعاً يخامرهم الحزن والألم :

« يا من نعت — على بعد — بمجلسه

كل — بما زعم الناعون — مرتين

كم قد قُتِلْتُ وكم قد مِتُّ عندكم ،

ثم اتفضت فزال القبر والكفن

قد كان شاهداً دفى — قبل قولهم —

جماعة ، ثم ماتوا قبل ما دفنوا

ما كل ما يتمنى المرء يدركه

تأتى الرياح بما لا تشتهي السفن »

وفى هذه القصيدة يقول :

« وإن بليت بود — مثل ودكم —
فإننى بفراق — مثله — قرن »

وما زال المتنبي يذكر دسائس أعدائه ، حتى بعد أن
زالت الوحشة بينه وبين سيف الدولة ، فقد اعتذر عن
الرجوع إليه — بعد أن دعاه سيف الدولة — فقال :

« وما عاقنى غير خوف الوشاة
وأن الوشايات طرق الكذب
وتكثير قوم وتقليلهم
وتقريبهم بيننا والخب
وقد كان ينصرم ميمه
وينصرنى قلبه والحسب »

وجماع القول أن الوشاة قد أفلحوا في تغيير قلب
سيف الدولة على المتنبي — شاعره المقرب المحبوب —

الذي سجل له شعره صفحات لا تحصى في سجل الخلود ، فلم يعد سيف الدولة يهش له كعادته ، وقد كان — كما يقول المتنبي — « يدنى مجلسه من سمائه » ثم تنكر وأظهر له الجفاء . وكأنه لم يرض عنه في المرة السابقة إلا ريثما يتحول عنه ويضاعف سخطه عليه ، ويسمح لمثل ابن خالويه بشج رأسه وهو في مجلسه .

ولقد عاب بعض الأدباء على المتنبي سكوته في مثل هذا الموقف وعدوه جبنا وخورا — ونراه حزما وأصالة رأى — ولو فعل المتنبي غير ذلك لكان متهورا وطائشا ولأمكن أعداءه وحاسديه من الفتك به وأروى — بذلك الطيش — نفوسهم الظمأى الى الانتقام منه . .
ولقد كان المتنبي واثقا من أن سيف الدولة إنما ينتقم منه في هذه المرة بيد ابن خالويه ، وكان من عادة سيف الدولة — كما أسلفنا — إذا تأخر عنه مدح المتنبي أن يحضر من لاخير فيه ، فيتقدم بالتعرض له في مجلسه بما لا يجب .
وقد أحضر له — في هذه المرة — اللد خصومه وأشدهم

حسد له وغيره منه - وهو ابن خالويه - وقد ذكرنا آنفا
أن عداوتهما مزدوجة ، لأنها عداوة بين مدرستين وعداوة
بين متنافسين .

وكثيرا ما دارت بينهما المناظرات ثم انتهت بسلام ،
أما في هذه المرة فقد اجترأ ابن خالويه على المتنبى - لأمرمًا -
وضربه - في حضرة سيف الدولة - فشج رأسه دون أن يحرك
سيف الدولة ساكنا أو يبدى اشمئزا من ذلك .
قالوا :

« وكان لسيف الدولة مجلس يحضره العلماء - كل
ليلة - فيتكلمون بحضرة ، فوقع بين المتنبى وابن خالويه
كلام ، فوثب ابن خالويه فضرب وجهه بمفتاح - كان
معه - فشجه ، وخرج المتنبى ودمه يسيل على ثيابه . »
قالوا :

« فعضب المتنبى وسار إلى مصر وامتدح كافورا . »

عداوة المتنبي وابن خالويه

أما عداوة ابن خالويه والمتنبي فهي — كما قلنا — عداوة أصيلة ، فقد كان المتنبي يترفع عنه وهو مؤدب سيف الدولة وزعيم علماء النحو واللغة في حلب ، وقد كان المتنبي — على انفرادِه بزعامه الشعر في عصره — أكثر تمكناً في اللغة وأساليبها من ابن خالويه وأقدر على هزيمته رغم تخصص ابن خالويه في درس اللغة والنحو .

ومن عجيب الأمور أننا نرى من يتخصص في اللغة وحدها يعجز عن مباراة من يجمع — إلى عنايته باللغة وتفهم أسرارها — التخصص في آدابها وبعض علومها .

ولعل السر في ذلك راجع إلى أن الأول جامد على درس أساليبها عاكف على الفاظها ، والثاني مجدد في أساليبها متصرف بفتون القول فيها (١)

(١) ولقد كان المتنبي — إلى شاعريته الفذة — عالماً لغوياً كبيراً . قالوا : « وكان يكثر من نقل اللغة والأخلاق على غريبها وحوشها ، ولا يسأل عن شيء إلا استشهد له » .

وإن نظرة تلقيها على ديوان المتنبي ونظرة أخرى
تلقيا على كل ما ألفه ابن خالويه لتكفيان لإقناعك بهذا
الرأى .

فالمتنبي — فى ديوانه — متفنن ماهر وشاعر مبدع
خلاق ، يطالعك بأبهج الصور وأروع المعانى .

أما ابن خالويه فلا ترى — فى مؤلفاته — إلا طول
الدرس وقوة الصبر والجلد على تدوين كتاب « ليس فى كلام
العرب » أو كتاب « إعراب ثلاثين سورة من
القرآن ^(١) » أو كتاب « المقصور والمدود » أو كتاب
« المذكر والمؤنث » أو « الألفات » أو « شرح مقصورة
ابن دريد » الخ .

فأنت تراه — فى كل تأليفه — متعاً لامبتدأ ،
ومصنفاً لامبتكر ، وشارحاً لامنشأ .

ولعل خير ما قرأناه من شعره هو قوله :

(١) هو كتاب القراءات .

إذا لم يكن صدر المجالس سيدا
فلا خير فيمن صدرته المجالس
وكم قائل : « مالى رأيتك راجلا » .
فقلت له : « من أجل أنك فارس
وهو — كما ترى — شعر ، كل جماله أن به مقابلة طريفة
ونكته مستملحة . وهو — بعد ذلك — إذا لم تعده شعرا
عاديا ، فلن تسمو به إلى شعر الفحول (١)
وما أصدق المعرى — فى مثل هذا الصدد — حين يقول :
تساور فخل الشعر أو ليث غابه
— سفاها — وأنت الناقاة العشراء

(١) وما اختاره له صاحب القيمة من الشعر قوله — فى وصف برد همدان — وفيه

من التكلف وضعف الصياغة ما فيه — :

«لذا همدان اعثارها البرواقضى - - برغلك - أيلول وانت مقيم
فبينك عشاء وانك سائل ووجهك مسود الياض بهيم
وانت اسير البرد تمشى بعلة على السيف تحبو - مرة - وتقوم
بلاد - إذا ما الصيف أقبل سجنة ولكنها - عند الشتاء - حميم»

وإذا كان هنا من مختار شعره فما ندرى كيف يكون مرذوله وعنه بعد ذلك ! وما نجيب
القلارى فى حاجة الى تنبيهه الى ما فى هذا الشعر من فساد لاذق إذ مخاطبه بقوله « فبينك
عشاء » الى اخر هذه الدعوات التى تدعو لانه لا يجيب صاحبها الى تحقيقها .
وانظر الى نحوى يصرف ظمة عشاء فى شعر لا يستحق عناء سماعه فضلا عن تكلف نظمه !

وأني للعالم اللغوى أن يتسامى إلى منافسة فحول الشعرا
ولقد كان خيرا لابن خالويه لو وقف عند حده ولم يرهق
نفسه بحسد المتنبي والتطلع إلى منافسته، حتى لا ينطبق عليه
قول المتنبي :

« وما كد الحساد شئ، قصده
ولكنه من يزحم البحر يفرق »

وإنا نرى من الحق علينا أن نقرر - قبل أن نختم هذه
الكلمة - إجلالنا لعبقريه المتنبي وإعجابنا بنبوغ أبي فراس
وتقديرنا لجهود ابن خالويه . وما كان أجدر هؤلاء أن
يكونوا يدا واحدة وأن يتعاونوا جميعا فى خدمة الأدب ،
ولكنها شهوات الأحقاد والأناية والحسد تأتى إلا أن
تُنسى المعاصر حسنيات معاصره وتجعل من مثل أبى فراس
والمتنبي خصمين وهما أجدر أن يكونا أخوين وصديقين .
ومن يدرى ، فلعل المتنبي - لو تأخر به الزمن - لكان من

المعجبين يشعرون أبي فراس، ولو تقدم به الزمن لكان أبو فراس
من المفتونين بشعره، كما قتن أبو العلاء المعري بالمتنبى وأشاد
بفضله وعنى بشرح ديوانه .

ومن يدري ماذا كان يقوله أبو العلاء عن المتنبى -
معاصراً له - رغم ما عرفه في أبي العلاء من حب الانصاف
والحرص على الحقيقة .

ولا تزال نرى من أعلام عصرنا الحالي وكبار أدبائه
من يمثل لنا هذه المآسى إلى اليوم
وهكذا يأتي التاريخ إلا أن يعيد نفسه ويحقق قول
أبي العلاء :

« ألا إنما الأيام أبناء واحد
وهذه الليالي كلها أخوات
فلا تطلبن من عند يوم وليلة
خلاف الذي مرت به السنوات ^(١) »

(١) نشرت بمقتطف يناير سنة ١٩٣٠ .

(٤)

في مدينة السلام

بين المتنبي والحاتمي

« ولما قدم أبو الطيب — من مصر — إلى بغداد
وترفع عن مدح اللبي الوزير — ذهاباً بنفسه عن
مدح غير الملوك — شق ذلك على الهادي ، فأغرى به
شعراء بغداد حتى قالوا من عرضه ، وتباروا في هجائه
- وفيهم الحجاج وابن سكرة اللاتمي والحاتمي - وسمعوه
ما يكره ، وتماجنوا به وتنازروا عليه . ولم يجبههم ولم
يفكر فيهم . »

« انتهى »

(١)

تمهيد^(١)

ورد المتنبى مدينة السلام بعد أن روَّعته التجارب
القاسية ولقى ما لقي من عنت الزمان وتقلبات الأيام ومعاذاة
الرجال . ولقد ترك سيف الدولة الندى كان يقول فيه :
« أسير إلى أقطاعه ، في ثيابه ،

على طرفه ، من داره ، بحسامه . »
وحسب أنه قد أمن كيد الحساد بعد أن ترك
سيف الدولة فإذا به يرى — حيثما ذهب — حساداً ومنافسين
ومتطوعين لإيذائه والذرية عليه والكيد له . فقد لقي
أمامه في بلاط كافور — بدل أبي فراس وابن خالويه —
ابن حنابلة وزير كافور^(٢) وهو من تعرف مكانة وخطراً ،
ثم هرب من مصر — بعد أن هرب من حلب — فراراً من
انتقام كافور ووزيره ، وهما بعد ذلك أشنع هجاء ، فن
قوله في مقصورته :

(١) نشرت بمقتطف شهر فبراير سنة ١٩٣٠

(٢) هو أبو الفضل جعفر بن الفرات المعروف بابن حنابلة

وماذا بمصر من المضحكات
ولكنه ضحك كالبكاء
بها نبطي^(١) من أهل السواد
يدرس أنساب أهل العلا
وأُسود^(٢) مشفوه نصفه
يقال له : « أنت بدر الدجا »^(٣)

وقد شعر المتنبي بخطئه وظهرت حسرته اللاذعة
— بعد أن خيب كافور آماله — وتجلّى ذلك في قوله :

« وفارقت خير الناس قاصد شرم
وأكرمهم طرّاً لألأمهم طرّاً

(١) يعني ابن حنابلة

(٢) يعني قافور الاخشیدی

(٣) قالوا : وكان المتنبي قد مدح ابن حنابلة بقصيدته التي أولها :

« باد هواك » صرت أم لم تصبرا » وجعلها موسومة باسمه : لتكون إحدى قوافيها « جمفرا »
وفيها قوله :

صفت السوار لاني كف بشرت بابن الفرات ، وأى عبد كبرا

قالوا : « فلما لم يرضه صرفها عنه ولم يشده إليها » ثم مدح بها ابن العميد

فعاقبنى المخصي بالغدر - جازيا -
لأن رحلى كان عن حلب غدرا
وما كنت إلا فائل الرأي ، لم أعن
بجزم ولا استصحب في وجهتي حجرا

فلما ورد مدينة السلام ضوعفت خيئته ويأسه ،
ورأى من الخصومة والاحقاد ما لم يكن في حسبانته ، ووجد
أمامه خصما عظيم الخطر عنيف الخصومة واللدد . فقد بلى
بخصومة المهلبى ، بعد أن نجح من خصومة ابن خنزابه ،
وكلاهما وزير نافذ الكلمة لا يستهان . بعداوته وغضبه .
وكان السبب في هذه العداوة — كما أسلفنا — أن
المتنبى ترفع عن مدح المهلبى ، فأغرى به الشعراء وأثارهم عليه
وهكذا فر المتنبى من مصر الى مدينة السلام وهو يحسب
أنه قد أصبح بئامن من المناقسة والحسد ، فإذا هو في بلد
الخصومة واللدد ، وإذا الوزير المهلبى ساخط عليه يغرى
الشعراء بشتمة ويوغز الى الأدياء بثلبه وتنقص قدره ، وإذا معز

الدولة - سيد بغداد ومولايها - حائق عليه، وإذا الأذنان
يتلمسون إرضاء ساداتهم بكل وسيلة ويتهافتون على ذم عدوهم
وتلبه بكل أسلوب .

. وإذا بنا نرى الحاتمي (١) - بطل هذه المناظرة -

يحتال جاهداً للقاء المتنبى وإرواء غلته، ويتامس مناظرته،
فاذا أعجزه ذلك ذهب إليه في بيته، لا لينظره أو يناقشه
بل ليشتمه ويلعنه ويسفّهه، ثم يعود إلى ساداته زاعماً أنه
قهر خصمهم اللدود وأربى على الناية في تحقيره وتصغير
شأنه . ورحم الله علقمة إذ يقول :

« فَإِنَّكَ لَمْ يَفْخَرْ عَلَيْكَ كِفَاخِرُ

ضَعِيفٌ ، وَلَمْ يَغْلِبْكَ مِثْلُ مَغْلَبٍ »

كيف كانت المناظرة

ليس لدينا الا مصدر واحد نستقي منه أخبار هذه
المناظرة وهو ما كتبه الحاتمي نفسه عنها، وليس هذا
بالمصدر الثقة الذي يؤخذ به ويعول عليه وتقبل دعاواه

(١) هو أبو علي محمد بن الحسن المظفر المعروف بالحاتمي وهو كاتب لنوى مشهور .

قضايا مسلمة، لأنه - كالمصدر الذي استقيناه منه رواية المناظرة التي حدثت بين الهمداني والحوارزي - وهي رواية خصم عن خصمه .

على أن الحاتمي يناقض نفسه في روايته - أكثر من مرة - فهو يحاول أن يقنعنا بأن كبرياء المتنبي عليه هي التي حملته على شتمه ، بينما يروي لنا أنه لم يذهب الى المتنبي ولم يشتمه الا إرضاء للوزير الملهي ومعز الدولة معاً . وهو يغير المتنبي بأنه قابله بلباس فاخر بينما يفخر عليه بأن له بغلة فاخرة وعبيداً وغلماً ناعماً الخ .

وهو يعلل رسالته بالأسجاع الفائرة ويكيل لنفسه المديح كيلا يذهب في الفرور الى أبعد مما ذهب إليه المتنبي حتى ليدكرنا بقول ابن الرومي :

« عذرتنا النخل في ابداء شوك

يذود به الأنامل عن جناه

فما للموسج الملعون أضحي

له شوك - بلا ثمر نراه . »

فإننا إذا استطعنا أن نسيغ غرور المتنبى ، لم نستطع
 — بحال ما — أن نسيغ غرور هذا التماذج المتعجب بنفسه .
 ورواية الخاتمي على ما فيها من التناقض تكاد تكون
 — لما فيها من الإغراق — مستحيلة الوقوع . فهو يزعم لنا
 أنه هزم المتنبى — على طول الخط — إن صح هذا
 التعبير ، وأن المتنبى لم يوفق في ردو احد يفند به مزعما
 واحدا من مزاعمه ، وأنه كان لا يفسده يبتأمن غرره الا زيفه
 الخاتمي وردّه الى أصله واستشهد بشعر من سبقوا المتنبى .
 الى معناه .

ونحن إذا صدقنا ما يرويه الخاتمي من أنه ذكر للمتنبى
 كثيرا من سقطاته ومرتدول شعره ، لم نستطع — بعد
 ذلك — أن نصدق بقية ما يرويه لنا من أنه زيف كل ما
 استشهد به المتنبى من غرره ، وأنه ردّه الى مصادره
 ارتجالا . وما كان أجدر الخاتمي أن يصدقنا القول ،

فيقرر لنا أنه كتب رسالته هذه في نقد المتنبي. وأجهد في كتابتها قريحته وضمنها خلاصة آرائه صفوة معارفه ، بدل أن يزعم لنا أنه ارتجلها في جلسة واحدة .

وهذه الدعوى تذكرنا بما يزعمه لنا بعض زعماء الشعر في عصرنا من أنه يرتجل كل قصائده - وبعضها يبلغ مائتي بيت أحياناً - ولو صحَّ زعمه لرأينا له ولو قصيدة واحدة غير مرتجلة تفوق كل هذه القصائد .

الرسالة الخاتمية

وإنك ترى حقد الخاتمي وغيظه على المتنبي واضحين في قوله من رسالته (١) :

« لما ورد احمد ابن الحسين المتنبي مدينه السلام منصرفاً عن مصر ومتعرضاً للوزير أبي محمد المهلبى ، التحف برداء الكبر وأذال ذيول التيه ، ونأى بجانبه استكباراً وثنى عطفه جبرية وازوراراً » قال : « فكان لا يلاقى أحداً :

(١) اسمها الرسالة الخاتمية ، او الرسالة الموضحة بما سهاها الخاتمي نفسه .

« وساء معز الدولة » أحمد بن بويه « المقدم ذكره
 — وقد صورت حاله — أن يرد حضرته وهي دار الخلافة
 ومستقر العز ويبيضه الملك — رجل صدر عن حضرة عدوه
 سيف الدولة بن حمدان — وكان عدواً مبيناً لمعز الدولة —
 فلا يلتقى أحداً بمملكته يساويه في صناعته ، وهو ذو النفس
 الأبية والعزيمة الكردية والهمة التي لو همت بالدهر لما
 تصرفت بالأحرار صروفه ولا دارت عليهم دوائره »
 ثم قال :

« وتخيّل الوزير المهلبى — رجلاً بالغيب — أن أحداً
 لا يستطيع مساجلته ولا يرى نفسه كفواً له ولا يضطلع
 بأعبائه فضلاً عن التعلق بشيء من معانيه .

والرؤساء مذاهب في تعظيم من يعظمونه وتفخيم من
 يفخّمونه وتكرمة من يراعونه ويكرمونه ، وربما حالت
 بهم الحال وأوشكوا عن هذه الخليقة الانتقال ، وتلك صورة
 الوزير المهلبى في عوده عن رأيه هذا فيه . »
 هكذا يصور لنا الحاتمى أنه هتك ستر المتنبي وأبان

ضعفه وأقنع الوزير المهلبى أن المتنبي لا قيمة له ولا خطر،
وأنهم أكرهوا من شأنه وهو صغير، وتهيبوه وهو ضعيف
حقير، وأنه — كما يقول الخاتمي في رسالته — « لم يكن
فيه مزية يتميز بها عن الهجين الجذع من أبناء الأدب،
فضلا عن العتيق القارح إلا الشعر. »
إلى أن يقول :

« فنهدت له متبعا عواره ومقلما أظفاره ومذيعا
أسراره، وناشرا مطاويه. »

ألا ترى إلى هذا الجبار القادر كيف قلم أظفار المتنبي
وأذاع أسراره وتتبع عواره ؟

ثم يقول في رسالته إنه كان متحينا أن تجمعهما دار
يشار إلى ربهما ليجريا معا في مضمار يعرف به السابق من
المسبوق واللاحق من المقصر عن الحقوق .

وهذا يذكرنا بما فعله بديع الزمان الهمداني من التحكك
بالخوارزمي ^(١) رغبة في الظهور عليه لما في ذلك من التنويه به.

ثم يقول لنا متمدحاً بفضائله وسجاياه الباهرة :-
« وكنت — إذ ذاك — ذا سحب مدرار وزند في
كل فضيلة وار ، وطبع يناسب العقار إذا وشيت بالحجاب
ووشت بها سائر الأكواب »
ألا تصدق الآن أن هذا النابغة الفذ ، يغلب المتنبي ،
بعد أن حدثك عن نفسه بأنه كان ذا سحب مدرار وزند
في كل فضيلة وار ؟ »

نعم في كل فضيلة من الفضائل قاطبة .
ثم يقول لنا في رسالته : « هذا وغدير الصبا صاف ،
وردأؤه ضاف ، وديباجة العيش غضة ، وأرواحه معتلة ، وغماؤه
منهلة ، وللشيبية شرة الخ »

ولعلك ترى من ذلك أنه لم يكتب هذه القصة إلا
بعد أن مات المتنبي بزمان طويل ، فقد حدثت هذه
المناظرة حوالي عام ٣٥٢ هـ . ومات المتنبي سنة ٣٥٤ ، وليس
هذا بالزمان الذي ينتقل فيه الحاتمي من عهد الصبا إلى عهد
الكهولة أو الشيخوخة .

ثم يحدثنا الحامى أنه — بعد أن أخفق فى مقابلة المتنبي —
 ذهب إلى يته ليفرغ جعبة أحقادِهِ ويشفى حزازات نفسه
 فيقول: «حتى إذا عدت إلى اجتماعنا عواد من الأيام قصدت
 مستقره، وتحتي بغلة سفواء^(١) تنظر عن عيني باز
 وتتشفو بمثل قادمى نسر، وهى مركب رائع، وكأني
 كوكب وقاد من تحته غمامة يقتادها زمام الجنوب، وبين
 يدي عدة من الغلمان يتهاقون تهافت فريد السر عن أسلاكه. »
 ولما انتهى من المباهاة والإدلال ببغلة السفواء التى
 تنظر عن عيني باز وتتشفو بمثل قادمى نسر، وأقنعنا بأنها
 مركب رائع وأنه كان عليها كالشوكب الوقاد من تحته
 غمامة يقتادها زمام الجنوب وهكذا إلى آخر هذه الأوصاف
 المضحكة، بدأ يقص علينا مدهوشاً كيف رأى المتنبي هذه
 العظمة من غير أن ينخلع لها قلبه أو يطير شعاعاً؟ قال :
 « ولم أوزد هذا متعجباً ولا متكرراً بذكره ، بل
 ذكرته لأن أبا الطيب شاهد جميعه — فى الحال — ولم ترعه

روعته ، ولا استعطفه زبرجه ، ولا زاده إلا عجباً بنفسه
وإعراضاً عني بوجهه . »

وقد كان المتنبي جديراً — بعد أن رأى هذه الأبهة
وتلك العظمة — أن ينحني لإجلالها لصاحبها وتعظيماً لشأنه ،
ولكنه — لكبريائه — لم يفعل ، بل أشاح بوجهه عنه — كما يقول
الحاتمي — ونهض من مجلسه حين استؤذن له عليه ودخل
بيتاً إلى جانبه ، ونزل الحاتمي عن بقلته — كما يقول —
والمتنبي يراه ، ودخل إلى مكانه ، فلما خرج المتنبي نهض الحاتمي
إليه . قال الحاتمي :

« فوفيته بحق السلام — غير مشاح له في ذلك — وكان
سبب قيامه من مجلسه لئلا يقوم لي عند موافاتي . »

وهكذا يظل يقص علينا الحاتمي من أمثال هذه
التفاصيل التافهة حتى يضجرنا إضجاراً ، ثم يقول :

« ولبس — المتنبي — سبع أقبية ملونة وكان الوقت آخر
ما يكون من الصيف وأحق بتخفيف اللبس . »

وإذا صح قول الحاتمي كان دليلاً إما على سخف المتنبي

في العناية تمثل هذه الأشياء التافهة ، أو دليلاً على رغبته في أن
يكيّل للحاتمي بنفس الصاع ، ويظهر له أنه — في ذلك أيضاً —
لا يقل عنه ، ولكل مقام مقال ولكل قوم أسلوب بعينه
لا يفهمون إلا به !

ثم يشكو الحاتمي من إعراض المتنبي عنه إذ كان — كما
يقول — لا يعيره طرفاً ولا يكلمه حرفاً .

قال الحاتمي :

« وكنت أتميز غيظاً ، وأقبلت أسخف رأيي في قصده
وأعاتب نفسي في التوجه إلى مثله ، وهو مقبل على تكبره ،
ملتفت إلى الجماعة التي بين يديه ، وكل واحد منهم يوميء
إليه ويوحى بطرفه ويشير إلى مكاني ويوقظه من سنة
جهله ، فايزداد إلا زوراراً ونفاراً ، جرياً على شاكلة خلقه . »

بين المتنبي والحاتمي (١)

٢

« يشقى رجل ، ويشقى آخرون بهم
ويسعد الله أقولنا بأقوالهم »

ولقد اضطرب الحاتمي في روايته اضطراباً عجيباً ، ولم يكديروى لنا شيئاً إلا روى تقيضه ، حتى أذكرنا بالحكاية المعروفة التي كانوا يقصونها علينا ، وخلاصتها أن سيدة استعارت من جاريتها مكيالاً ولم ترده إليها .

فلما ألحفت عليها أعادت إليها مكيالاً قديماً فقالت لها جاريتها : « ليس هذا مكيالاً الذي استعرتني مني »
فأجابتها مغضبة :

« لست بحقة فيما ترعمين ، وما أجدرني أن أصارحك القول ، فلتعلمي أولاً أن هذا أكبر من مكيالك ، ولتعلمي ثانياً أن هذا المكيال جديد على حين مكيالك قديم ، ثم لتعلمي ثالثاً أنك لم تعطيني مكيالاً البتة ! »

وهكذا يأتي الحاتمي إلا أن يقنعنا في رسالته بمثل هذا المنطق المضطرب العقيم، فهو يقص علينا أنه رجب بالمتنبى ووفاه حق السلام « غير مشاح له في القيام » حينما يقص علينا أيضاً أنه ما كاد يلقى المتنبى حتى تمثل بقول الشاعر :

« وفي المشى إليك علىَّ نار »

ولكن الهوى منع القرار .
فتمثل المتنبى بقول الآخر :

« يشقى رجال ، ويشقى آخرون بهم .
ويسعد الله أقواما بأقوام
وليس رزق الفتى من فضل حيلته
لكن جدود وأرزاق بأقسام
كالصيد يجرمه الراى المجيد ، وقد

يرمي فيحرزه من ليس بالراى »
أرايت خيراً من هذه التحية وأدل منها على تبادل الإجلال والمحبة ؟ (١)

(١) اراد الحاتمي أن يقنعنا في رسالته بكثير من المتناقضات منها :
انه ذهب الى المتنبى في بيته مستقماً لتعاليمه على الوزير المهلبى وعهد الدولة ، بعد ان أعبته الخيل

ويخبرنا الخاتمي أنه جلس مستوفزاً وجلس المتنبي محتفزا ويقول : « وأعرض عني لاهياً ، وأعرضت عنه ساهياً ، أوئب نفسي في قصده وأستخف رأيها في تكلف ملاقاته . »
والمعجب أن يعجب الخاتمي - بعد ذلك - من إعراض المتنبي عنه وإقباله على غيره ، وإياه - كما يقول - « إلا ازورارا ، وعتواً واستكباراً . »

ونحسب أن المتنبي كان قد سمع من بعض جلسائه بفرور الخاتمي وتحفزه لتحقيره والزراية عليه ، ولو أنه لم يسمع بشيء من ذلك لكان في هذه المقابلة ما يبرر إعراضه عنه .

ولعله رأى على أسارير وجهه نزوعه إلى الشر وتحفزه

في تلس لقاءه جلهدا ، وأنه مع — هذا السعي الجيئ إلى لقاء المتنبي — كان يحتمره ولا يراه بخديراً بالاعتام .

وأنه بدأ المتنبي بالاحترام والتحجير — في وقت واحد — وأنه كان الباغي بالمجرم على المتنبي ولم يكن له مع ذلك يد في ذلك المجرم لأن المتنبي هو الباغي بمهاجته . وقد لجأ الخاتمي إلى هذا الأسلوب ليضمن شيئين : أولهما أن يؤكد لسادته أنه تطوع بمهاجة المتنبي واتفاقه أرضاه لهم ، وثانيهما أن يظهر للناس بأن المتنبي كان الباغي عليه ولو لا ذلك ما حاجه الخاتمي . ولاسيما إلى الجمع بين الأمرين إلا إذا لجأنا إلى منطوق صاحب المكيال !

للمخاصمة ، والمتنبى لم ينس بعد ما جرته عليه معاداة الرجال
من المصائب والأهوال ، ولم ينس ما جرّه عليه احتقاره ابن
خالويه وأضرابه .

والمتنبى - كما ترى - غريب الدار ، ولعله أدرك أن الحاتمي
- كابن خالويه - يد متحفزة للبطش به مؤيدة بساعدي عضد
الدولة والوزير المهلبى ، فحاول المتنبى أن يجامله ، ورأى كما يقول
الحاتمي : « أن يثنى جانبه إليه ويقبل بعض الإقبال عليه . »
فقال له « ايش خبرك »

ولكنه ما كاد ينطق بها حتى انفجر بركان حقه الكمين ،
وانطلق في سبابه انطلاقا ، وأدى بذلك الرسالة التي تطوع بها
- أو على الأصح - التي طلب إليه أن يؤديها ، فقال للمتنبى :
« بخير أنا ، لولا ما جننته على نفسى من قصدك ،
ووصمت به قدرى من ميسم الذل بزيارتك ، وجشمت
رأى من السعى إلى مثلك ممن لم تهذب تجربة ولا أدبته
بصيرة . »

قال الحاتمي : ثم تحدثت عليه تحدر السيل إلى قرارة

الوادى وقلت له :

« أين لى ممّ تيهك وخيلاؤك؟ وعجيك وكبرياؤك؟
وما الذى يوجب ما أنت عليه من الذهاب بنفسك
والرحى بهمتك إلى حيث يقصر عنه باعك ولا تطول
إليه ذراعك؟ هل ههنا نسب انتسبت إلى المجد به؟
أو شرف علقت بأذياله؟ أو سلطان تسلطت بعزه؟ أو علم
تقع الإشارة إليك به؟ إنك لو قدرت نفسك بقدرها،
أو وزنتها بميزانها ولم يذهب بك التيه مذهباً، لما عدوت
أن تكون شاعراً مكتسباً. »

ويحدثنا الحاتمى — وهو الراوية الثقة كما رأيت! —
أن المتنبي لم يكذب يسمع منه ذلك حتى امتقع لونه وغص
بريقه ، وجعل يلين فى الاعتذار ويرغب فى الصفح
والاعتذار .

وما كان أحوجنا إلى سماع رواية المتنبي عن سبب اعتذاره
إليه — إن صح ما يزعمه الحاتمى — لتعرف هل كان اعتذاره

إليه لأنه اقتنع بهذه الحجج الدامغة أم لما رآه على أسارىه من أمارات الاضطراب والخلل ، فإن من الناس من يحتاجك بغير المنطق وترى في أسارىه تحفزاً للفتك بك إذا لم تقره على كل ما يقول وتذعن لما عليه عليك من الآراء إذعاناً ؟ على أننا نلمح من رواية الحاتمي أن المتنبي حاول جهده أن يصرفه عنه ويتخلص من شره ، ويتعد عن الحاجة لا يدرى مغبتها ولا يعرف إلى أين ينتهي مداها ! فاعتذر إليه بأنه لم يعتمد الإساءة إليه بإعراضه عنه ، وأكد له أنه لم يثبتته ، ولكن الحاتمي أبى إلا أن يتم الرسالة التي جاء ليؤديها إليه - غير متقصّة ولا مبتورة - فقال له :

« يا هذا ، إن قصدك شريف في نسبه - يعني نفسه - تجاهلت نسبه ! أو عظيم في أدبه صغرت أدبه ، أو متقدم عند سلطانه خفضت منزلته ! فهل المجد تراث لك دون غيرك ؟ كلا والله ! لكنك مددت الكبر ستراً على نقصك وضرته رواقاً حائلاً دون مباحثتك ! »

وما زال الحاتمي يؤكد لنا أن المتنبي تهيبه - بعد أن

علم أنه شريف في نسبه عظيم في أدبه متقدم عند سلطانه —
وأخذت الجماعة ترضاه ضارعة إليه أن يصفح عن ذلة المتنبي
ويغتفر له تقصيره ، وأن المتنبي ظل يؤكد له مقسما أنه لم
يعرفه معرفة ينتهز معها الفرصة في قضاء حقه ، والحاتمي
يقول له :

« ألم استأذن عليك باسمي ونسبي ؟ أما كان في هذه
الجماعة من كان يعرفني لو كنت جهلت ، وهب أن ذلك
كذلك ألم تر شارقي ؟ أما شاهدت ملبسي ؟ أما شمتت
نشر عطري ؟ ألم أتميز في نفسك عن غيري ؟ ألم تر تحتي بغلة
يعلوها مركب صقيل وبين يدي عدة غلمان ؟ »

الى آخر هذه العبارات التي تدل على اضطراب وخبل
أو على حماقة نادرة تتضائل أمامها كل حماقة .

وكأنما شعر المتنبي أن الحاتمي هذا لم يزره الا مستثيرا
فقد طالما ألف من طلاب الشهرة التحكك به ، أو موعزا
اليه من قبل سادته فقد طالما عانى المتنبي وأمثاله عنت

هؤلاء الأذئاب وسلاطتهم . ولعله سمع أنه كان يشهر به في مجالسه الخاصة أو بلغه عنه ما يقرب من ذلك .

ولما اطمأن الحاتمي الى اقتناعنا بهزام المتنبي أمامه، أخذ يحدثنا عن تجاوزه بعد ذلك عن إساءته تجاوز القادرين، ويقص علينا كيف بدأت المناظرة بينهما وكيف هزم المتنبي هزيمة منكرة، وكيف رد الحاتمي كل بيت من أبياته إلى مصدره الذي سرقه منه وأثغره بعيوبه وسخفه، فكان المتنبي لا يذكر له بيتاً من غرره حتى يرده الحاتمي إلى أصله ارتجالاً.

وقد أحسن ابن خلكان كل الإحسان في كلمته التي علق بها على هذه المناظرة إذ قال :

« فَإِنْ كَانَ كَمَا ذَكَرَ أَنَّهُ أَبَانَ لَهُ جَمِيعَهَا فِي ذَلِكَ الْمَجْلَسِ فَمَا هَذَا إِلَّا إِطْلَاعٌ عَظِيمٌ وَشَهَادَةٌ لِصَاحِبِهَا بِالْفَضْلِ الْبَاهِرِ مَعَ سُرْعَةِ الِاسْتِحْضَارِ . »

وهذا الارتياح يدل على يقظة بارعة طالما ألفناها من

ابن خلكان في تراجم من تناولهم بالذكر في كتابه الحافل ،
قد لمح تلميحاً دقيقاً لما يساوره من الشك في رواية الحاتمي
عن نفسه واستكثر عليه أن يرد كل بيت الى مصدره
بمثل هذه السرعة !

ولو افترضنا صدق الحاتمي في روايته لاستدلنا بذلك
على أن عناية الأدباء بدرس شعر المتنبي في دار السلام قد
بلغت أقصاها وأنهم عنوا بتتبع ما أخذه ، فلم يجد الحاتمي من
الصعب عليه أن يظهر المتنبي أمثال هذه المآخذ الشائعة ،
ثم زاد على ما حدث وغالب في روايته بعد ذلك وأضاف — إلى
ما قال — ما لم يقل حتى آتم رسالته .

مثال من انتقاد الحاتمي

وأكثر انتقاد الحاتمي تافه لقيمة له ، وجُلّه من
الانتقادات المبهمة الغامضة ، وقد أخذ عليه عيوباً لا يسلم
منها شاعر قديماً كان أو حديثاً ، عريباً كان أو غريباً .
وليس أيسر على الناقد — إذا شاء أن يعدد مساوئ

شاعر — من ذكر عدة هفوات وقع فيها . وليس يسلم
الذهن الإنساني منهما سلب من الإسفاف أحياناً ، والشعر
— كما يقول ابن الرومي — كالشجر :

« رُكِبَ فِيهِ اللَّحَاءُ وَالْخَشَبُ الْيَبَا
بَسَ وَالشُّوكُ بَيْنَهُ الثَّمَرُ
فَلْيَعْذِرِ النَّاسُ مِنْ أَسَاءٍ وَمِنْ قَصَّةٍ
رَفِي الشَّعْرِ إِنَّهُ بَشَرٌ
مُطْلَبُهُ كَالْمَغَاصِ فِي دَرْكِ اللَّجْجِ
لَهُ مِنْ دُونَ دُرِّهَا الْخَطَرُ . »

ولا ندرى ماذا كره الخاتمي من قول المتنبي في هجاء
ابن كيلغ :

« وَإِذَا أَشْهَارٌ مُحَدَّثًا فَكَأَنَّهُ
قَرْدٌ يَقْبَهُهُ أَوْ عَجُوزٌ تَلْطِمُ »
فقد قال للمتنبي : « أما كان في أفانين الهجاء التي
تصرفت فيها الشعراء مندوحة عن هذا الكلام الذي ينفر

هذا كلام يرتاح اليه كل سمع ويأنس به كل طبع « مادام
يأبى الخاتمي إلا أن يتخذ من سمعه مقياساً لكل سمع ويجعل
من طبعه نموذجاً لكل طبع .

ونحن لا نقول إن كل نقد الخاتمي تافه ، فقد ذكر للمتنبى
عيوباً حقيقية كان المتنبى جديراً ألا يقع في مثلها ، ولكننا
نرى أن أمثال هذه العيوب لا يسلم منها شاعر كائن من كان
وبالغما بلغ من السمو والرفعة .

والمتنبى كالبنية الشاخنة المدعمة الأسس لا ينقص من
قيمتها أن يتلمس فيها المتعنت بعض هفوات تافهة ، ولا يعيبها
أن في إحدى غرفها لوحاً زجاجياً مكسوراً .

وقد عير الخاتمي المتنبى بتقصيره عن أبي نواس في بعض
معانيه ؛ ولو أن الخاتمي كان معاصراً لأبي نواس وأغرى به
— كما أغرى بالمتنبى — لعيره بأنه قصر عن جرير أو الأخطل
مثلاً ، ولو كان معاصراً لهذين لعيرهما بتقصيرهما عن غيرهما
ممن تقدمهما . والشاعر — كالسياسي — كثيراً ما يعيره خصومه

بالتقصير عن سلفه حتى إذا مات عيروا من يخلفه بالتقصير عنه ، بعد أن كانوا يعيرونه بالتقصير في حياته .

ورسالة الحاتمي طويلة لا تتسع هذه الإلمامة لمناقشتها ، فلنتقصر على مناقشة المحور الذي دارت عليه تلك المناقشة ، وهو الأساس الذي يعتمد عليه أكثر نقدة الشعر العربي خاصة ، فقد حاول الحاتمي أن يظهر المتنبي بمظهر اللص وأن ينهبه إلى معانيه المسروقة ، والسَّرَقَ أخرجيلة يلجأ إليها النقاد لهدم الشاعر - بعد أن تعييهم الحيل - وقد رمي بهذه النقيصة كل شاعر قديم ومحدث . وعندنا أن أكثر المعاني الجوهرية مشتركة بين الناس - على اختلاف لغاتهم وأزمانهم وبيئاتهم وأجناسهم - وانك لو حاولت أن تجد لأكثر المعاني أشباهاً لما أعياك ذلك . وربما قلت المعنى تحسب أنك انفردت به ثم عثرت على شبيهه - بعد عام أو عامين - في شعر قديم أو حديث عربي أو غربي . وقد عا قال عنبرة :

« هل غادر الشعراء من متردم ؟ »

وذلك أن النفس الإنسانية — على اختلاف نزعاتها
ومشئ إحساسها وشعورها — تكاد لا تختلف في الشعور
بأمهات المعاني ، وثمة تتوارد الخواطر . وإنما يمتاز الشاعر على
الشاعر بالافتنان في أداء هذه المعاني ، وروعة الأداء وحسن
التعبير عن دقائقها وظلالها والإبداع في صوغ الخواالج النفسية
والصور الشعرية المشرقة بالحياة والقدرة على تهيئة الجو
الرائع الذي تخلق فيه شاعريته وعرض معانيه في أبهى
صورها وأجل حللها .

ولنضرب للقارئ مثلاً واحداً من أمثلة عدة لا يتسع
لها المقام :

لعل كثيراً من الناس يدركون من أمثلة الحياة ونظمها
أن ما يضر واحداً قد ينفع الآخر .

هذا معنى شائع ميسور لكل متأمل وليس للسرقة
مجال فيه . وقد افتن كثير من الشعراء في صوغه فظهرت في
ذلك ميزاتهم ومواهبهم وتجلت قدرتهم على الخلق والإبداع .

وقد صاغه المتنبي في أبسط صورهِ فقال :
« مصائب قوم عند قوم فوائد. »
وتناوله ابن الرومي من قبلهِ فجَلَّاهُ في صورة أخرى
وهي قوله :

« فاهجني إنما هجاؤك عندي
ضحكات تزيد في السراء
ومحال أن يسعد السعداء الد
هر إلا بشقوة الأَشقياء »
فلما طرقة المعري جلاه في أبدع صُورِهِ وأَجملها فقال:
« وسخط الأطباء بما نالها
تولد منه رضى الخابل »

فثل لنا — من ذلك المعنى الشائع المطروق — صورة
رائعة دقيقة مشرقة بالحياة، وأظهر لنا — بريشة المصور الفطن —
ظبية يوقعها القدر وسوء الحظ ونكد الطالع في حباله
القائض فتدرك أن حينها قد اقترب وأن هلاكها وشيك ،
وصيادا يراها — في هذه الحال من الألم والسخط — فيرى

فرصة ثمينة نادرة بات يحلم بها طويلاً .

ولقد أحسن الجرجاني^(١) حين قال من فصل طويل
نحب أن يرجع إليه القارئ في كتابه :

« وقد يتفاضل مدعو هذه المعاني بحسب مراتبهم -
فتشترك الجماعة في الشيء المتداول وينفرد أحدهم بلفظة
تستعذب أو ترتيب يستحسن أو تأكيد يوضع موضعه
أو زيادة اهتدى إليها - دون غيره - فيريك المبتذل في
صورة المبتدع والمخترع . »

وقد ضرب الجرجاني لذلك أمثلة كثيرة ثم قال :
« ولم يبق عليك إلا أن تحترس من التفريط - كما احترمت
من الإفراط - فلا تكن كمن يرى السرقة لا يتم إلا باجتماع
اللفظ والمعنى وتقل البيت جملة والمصراع تاماً ، بل لا يعرف
السارق إلا من يفعل فعل عبد الله بن الزبير بأبيات من

(١) على بن عبد العزيز الجرجاني صاحب كتاب « الوساطة بين النبي وخصومه . »

ابن أوس» (٢)

إلى أن قال بعد كلام طويل :

« والسرق — أيدك الله — داء قديم وعيب عتيق ،
وما زال الشاعر يستعين بخاطر الآخر ويستمد من قريحته
ويستمد على معناه ولفظه » .

ومن أجل ما أورده في ذلك الفصل قوله :

« ومتى أنصفت علمت أن أهل عصرنا — ثم العصر الذي
بعدهنا — أقرب فيه إلى المعذرة وأبعد من المذمة ، لأن من تقدمنا
قد استغرق المعاني وسبق إليها وأتى على معظمها ، وإنما
يحصل على بقايا إما أن تكون تركت رغبة عنها واستهانة
بها أو لبعد مطلبها واعتياص مرامها وتعذر الوصول إليها .
ومتى أجهد أحدا نفسا وأعمل فكره وأتعب خاطره وذهنه

(٢) وحكايته كما قال الجرجاني أنه دخل على معاوية فأنشده لنفسه :

« أنا أنت لم تصف أخاك وجده على طرف المجران إن كان يعقل
ويركب حلال سيف من أن تضيمه إذا لم يكن عن شفره قال سيف مرسل »

فقال له معاوية : « لقد شعرت بمدى يا أبا بكر . »

ولم يفارق عبد الله المجلس حتى دخل من بين أوس المزني فأنشده البيت فقال « ألم تخبرني
أنهما لك » فقال : « المعنى واللفظ له ، وبعد فهو أخى من الرضاع وأنا أحق الناس بشعره . »

في تحصيل معنى - يظنه غريباً مبتدعاً ونظم بيت يحسبه فرداً
مخترعاً ، ثم تصفح عنه الدواوين لم يخط أن يحده بعينه أو
يجد له مثالا يفض من حسنه .

ولهذا السبب أحظر على نفسي ولا أرى لغيري بت
الحكم على شاعر بالسرقة . وقد أحسن أحمد بن أبي طاهر
في محاجة البحتري لما ادعى السرقة في قوله : -

« والشعر ظهر طريق أنت راكبه
فنه منشعب أو غير منشعب
وربما ضم بين الركب منهجه
وألصق الطنب العالي على الطنب . »

وإنما ذكرنا هذه الكلمة لتكون أساساً يبنى عليه
القارئ حكمه حين يقرأ الرسالة الخاتمية وغيرها من الرسائل
التي غنى أصحابها بذكر سرقات الشعراء فيها .

ونحب أن نلفت القارئ إلى دقة « المعرى » وانتباهه

إلى هذا المعنى حين تصدى - في رسالة الغفران - لتعريف الزمان فقال :

« وقد حددته حدًّا ما أجدره أن يكون مُبْقٍ إليه ،
إلا أي لم أسمعه » (١)

كلمة ختامية

ونعود إلى المتنبي والحاتمي فنقول :

إن المتنبي لم يكن ليقم لمثل الحاتمي وزناً لا سيما بعد أن سئم المنازعات والمنافرات، وبعد أن حطم الدهر آماله في الملك، وبعد أن تصدى لعداوة من لا يقاس الحاتمي إليهم في علم أو أدب أو سلطان . ولكنه أراد أن يتخلص منه ويصرفه عنه بعد أن عرف أنه طالب شهرة يريد أن يتحكك به .

وليس من العجيب أن يتهاقت مثل الحاتمي على المتنبي وأن يسجل له موقفاً معه يحفظه له التاريخ، وحسبه أن يناظر رجلاً « قد شغلت به الألسن - كما يقول ابن شرف القيرواني -

(١) ارجع الى رسالة الغفران « ج ٢ ص ٣٢ »

وسهرت في أشعاره الأعين ، وكثر الناسخ لشعره والغائص
في بحره وانفتش عن جمانه ودره وطال فيه الخلف وكثر
عنه الكشف »

ولا بد للمتنبى « من شيعة تغلو في مدحه — كما يقول
القيرواني — وخوارج تتعب في جرحه . »
وقد رأينا في هذا الفصل أحد الخوارج الذين تعبوا
في جرح المتنبى فلم يوفقوا في ذلك أى توفيق .
وقد حاول الحاتمي أن يسخف لنا المتنبى فلم يسخف
إلا نفسه ، وأراد أن يقنعنا بغلبته عليه فوق كل التوفيق في
أن يقنعنا بعكس ما أراد ، وأتاح لنا فرصة نادرة للفكاهة .

على أن للحاتمي شيئاً من الشعر المستملح وذوقاً أدبياً
موفقاً — في بعض الأحيان — ولكنه كان في هذه
الرسالة غرماً متحاملاً وقد أضله الهوى والغرور .
ولا نريد أن نصفه بالكذب والادعاء فيما رواه ،
فلنكتف بوصفه بالمغالة والإغراق .

بين المعرى وداعى الدعاة

« علم الامام — ولا أقول بظنة —
 ان الدعاة — يُسْعِبُهَا — تكسب »
 « ابو العلا. »

(١)

تمهيد

أحقاً أن داعي الدعاة لم يحفزه إلى كتابة هذه الرسائل إلى أبي العلاء إلا قول المعري من قصيدة له في اللزومات :

«غدوت مريض العقل والدين، فالقني

لتسمع أنباء الأمور الصالح ؟ »

وأن داعي الدعاة أراد أن يتعرف من أبي العلاء أنباء الأمور الصالح — كما حاول أن يقنعنا بذلك في رسائله — ليتهدي بهديه ؟ لقد حاول داعي الدعاة أن يدخل في روعنا ذلك ، كما حاول الرواة أن يقنعونا بأن هذا البيت وحده هو السبب الذي حفزه إلى كتابتها .

على أننا جديرون أن نتساءل مستفسرين :

هل دارت بين المعري وداعي الدعاة رسائل أخرى — غير هذه الرسائل — فقد أخبرنا بعض الرواة أن المعري كتب إلى داعي الدعاة يقول :

« يد بخمس مئين عسجد وديت
 ما بالها قطعت في ربع دينار؟
 تناقض ما لنا إلا السكوت له
 وأن نعوذ بمولانا من النار !
 فكتب إليه داعي الدعاة يقول :
 « عز الأمانة أغلاها ، وأرخصها
 ذل الخيانة ، فافهم حكمة الباري . »

ثم لا يزيد الرواة على هذا الخبر المتور شيئا ، فلا يقولون لنا : متى كانت هذه المكاتبة ؟ وكيف اقتضت على هذه الأبيات وخلت من عبارات المجاملة والأدب التي نراها في بقية الرسائل التي دارت بين المعري وداعي الدعاة ؟ وأين بقيتها إن كان لها بقية ؟ وأية مناسبة دعت المعري إلى التحرش بداعي الدعاة وهو لا يجهل خطره ومكائنه الدينية ؟ ومتى أرسل المعري هذين البيتين ؟ أكان ذلك قبل تبادل هذه الرسائل ؟ فكيف لم يشر إليها داعي الدعاة ؟ وما باله يسأل أبا العلاء عن مذهبه ودينه . مستفسرا . بعد أن صارحه

المعري بهذين البيتين؟ وما باله يطلب الهدى ممن لا هدى عنده؟ وما حاجته إلى السؤال بعد أن ظهر السر وانكشف الغطاء؟ أم كتبت بعد هذه الرسائل؟ والرواة يخبروننا بأنها قد انتهت بموته، فيحدثنا بعضهم أن آخر رسالة وردت من داعي الدعاة إلى المعري لم تصل إليه لأنه انتقل إلى العالم الآخر - وقت وصولها - ويقول بعضهم: « بل مات بوفورها » ويقول بعضهم: « بل عقب وورودها بقليل » .

ولعل الأقرب إلى المعقول أن يكون داعي الدعاة قد سمع هذين البيتين من أفواه بعض الناس في إحدى مجالسه - الخاصة أو العامة - فرد عليها حينئذ بقوله :

« عز الأمانة أغلاها، وأرخصها

ذل الخيانة ، قافهم حكمة الباري »

وهو بيت - على ما فيه من ركاكة وضعف - قلقو القافية متكلف الصياغة جدير أن يلحق بنظم الفقهاء . على أننا لا نستبعد أن تكون هذه الرواية مختلفة من أولها إلى

آخرها ، فقد اضطرب رواها فيها كل الاضطراب ، فزعم بعضهم أنها حدثت بين المعري وداعى الدعاة . وروى آخرون أنها حدثت للمعري في بغداد وأن فقهاء بغداد أغروا به إغراء وردوا عليه بهذا البيت . وقال آخرون : بل بعث بهذين البيتين إلى ابن حزم فأجابهما بذلك البيت . وفي هذا الاضطراب ما يكفي للشك في أمرهما .
على أن أولى الرسائل التي بعث بها داعى الدعاة إلى المعري تشعرنا بأنها كانت فاتحة المكاتبات بينهما .

لم كتبت هذه الرسائل

ونعود الى السؤال الأول لتعرف السبب الذي حفز داعى الدعاة الى مكاتبة أبي العلاء أهو الرغبة الصحيحة في الاهتداء . بهديه — كما يزعم — أم الرغبة في التحرش به والتشنيع عليه وكشف مستوره وتفسيره أمام الناس ؟ ونحسب أن نظرة هادئة الى هذه الرسائل كافية في إقناعنا بأنها كانت أقرب الى تحديه والتحرش به منها إلى الاستفادة من علمه ورأيه .

فألذئى يحفز الداعى إلى ذلك ؟ أهى غيرته الدينية ؟
كلا ، فلم يكن داعى الدعاة ممن تحفزه الغيرة الدينية
إلى مهاجمة المعرى والتعرش به فقد كان داعياً للدعاة الذين
قال فيهم أبو العلاء :

« علم الإمام — ولا أقول بظنة —

أن الدعاة بسعيها تتكسب »

وقد كانت دعوته من الدعوات الخطيرة وكان يسلك
فى إذاعتها أخبت الطرق ، فقد كان باطنياً يدعو إلى المذهب
الإسماعيلى وهو مذهب ينفيه الإسلام ويبرأ منه وسنوجزه
فى آخر هذا الفصل .

فإذا علمنا أن الغيرة الدينية لم تكن الباعث على مهاجمة
المعرى فأى باعث آخر أغرى داعى الدعاة به ؟
لقد كان أبو العلاء يمتق النفاق ويلعن المتجرين
بالدين والمتكسبين بالعقيدة فيقول :

« الدين متجر ميت ، فلذلك لا

تلفيه فى الأحياء إلا كامدا . »

وقد امتلأت كتبه — واللزوميات خاصة — بمثل
هذه اللعنات ، ونحن نجتزئ من ذلك بقوله :

« طلب الخسائس ، وارتقى في منبر
يصف الحساب لأمة ليهولها
وتراه غير مصدق بقيامة
أضحى يمثل — في النفوس ذهولها »
وقوله :

« رويدك قد غررت وأنت ندب
بصاحب حيلة يعظ النساء
يحرم فيكم الصبياء صباحاً
ويشربها — على عمد — مساء
يقول : لقد غدوت بلا كساء
وفي لئانها رهن الكساء
إذا فعل الفتى ماعنه ينهي
فن جهتين لاجهة أساء »
وقد كان داعي السعادة من تلك الفئة التي تعيش من

الاتجار بالدين والتظاهر بالورع والتقوى ، وتتخذ من ذلك
أجولة لتصيد الأغرار .

على أن أبا العلاء لم يقتصر على ذم هذه الفئة — على وجه
التعميم ، بل ذم الدعاة — على وجه التخصيص ، فقال :

« علم الإمام — ولا أقول — بظنة

ان الدعاة — بسعيها — تتكسب »

وقال في مكان آخر من اللزوميات :

« ضاع دين الداعي فرحت تروم الد

يب عند القسيس والشماس . »

وقال في مكان ثالث :

« لا يجبنك داع قام في ملا »

بخطبة زان معناها وطولها

فالمعطات وإن راعت سوى حيل

من ذى مقال على ناس تحوّلها

وإنما رام نسواناً تزوجها

بما اقتراه — وأموالاً تمولّها »

وما نحسب مثل هذا التشنيع بالهين وقعه على داعي
الدعاة ، وهو صاحب النفوذ العظيم .

فإذا تركنا ذلك جانباً ، رأينا أبا العلاء يسخر في
لزومياته أيضاً من الحاكم بأمر الله الفاطمي — بعد موته —
ويهزأ علانية من القائلين بعودته ، فيقول :

« مضى » قيل مصر « إلى ربه
وخلّى السياسة للخائل

وقالوا : « يعود » فقلنا : « يعود »

بقدره خالقنا الآبلى

إذا هبّ زيدٌ إلى طيء

وعاد كليب إلى وائل »

إلى أن يقول :

« وتصنى إلى المين أسمعنا

وتصبو إلى زخرف القائل »

وما نحسبه إلا يعنيه حين يقول :
« لو قال سيد غضا بعثت لأمة »

من عند ربى ، قال بعضهم : نعم »
وقد كرر هذا المعنى فى رسالة الغفران أكثر من
مرة (١) . ولا تنس أنه عرض بميمون القداح فى رسالة
الغفران أيضاً ، وميمون القداح هو رأس الدولة الفاطمية
يغضبون له وإن كانوا لا يجهرون للناس بالانتماء إليه .
ونحسب أن فى بعض هذا ما يكفى للتحرش بأبى العلاء
والكيد له والرقبة فى تفسيره أمام الناس . ولقد حاول
المعرى أن يترضى داعي الدعاة — بكل ما أوتى من قوة

(١) على أن المعرى لم يقتصر على ذم الحاكم وحده ، فقد ذم جميع الولاة والحكام
فى مواطن كثيرة ، وكان ذلك ما ينضبهم عليه ، وقد شك المعرى من أن الولاة كانوا
يذرون تعذيبه .

وصكيف لا يثرون بتعذيبه والكيد له وهو القاتل :

ظلموا الرعية واستباحوا كبنها
وعدوا مصالحها وهم اجراءؤها
والقاتل :

سأس الانام شياطين مسلطة
فى كل مصر من الوالين سلطان
من ليس يحفل خصم الناس ظلم
إن بات يشرب خمرأ ، وهو مبطان
والقاتل :

يسوسون الأمور بغير عقل
فينفذ امرهم ويقال ساسه

وبما سلك من عبارات المجاملة وأدب الخطاب — فلم يفلح،
وأبى داعي الدعاة إلا إخراجهم وإذاعة رأيه على الناس جهره،
كَأَن لَهُ تِرَّةٌ عنده .

وقد اتخذ لهذه المناوشة قول أبي الملاء :

« غدوت مريض العقل والدين فالقني

لتسمع أنباء الأمور الصحائح . »

تكأة يبرر بها سؤاله والتظاهر بالرغبة في الإفادة
من علمه وهديه كما زعم

ولقد كان لهذه الرسائل صيت ذائع ودوى هائل .
واقن الناس في أقوالهم ، فقال بعضهم : « إن داعي الدعاة
أفحمه ثم دس له السم فأت » ونحن نستبعد أن يكون
داعي الدعاة قد دس له السم لأنه لم يكن يعنيه أن يفتك
بالمعري بقدر ما يعنيه أن يشنع عليه ويظهره بمظهر المكابر
المائل عن الشريعة .

وقد لجأ المعري إلى كثير من عبارات الثناء التي ألفناها

من أبي العلاء والتي نعتقد أنها كانت من أكبر الأسباب التي حيتت فيه سائله وجعلتهم له أنصاراً ، فإن أكثر الناس لا يعينهم الدفاع عن الرأي بقدر ما يعينهم الدفاع عن أنانيتهم ، فإذا مدحت أحدهم نسي ما جاءك به ورجع عما أراده من الخاصة واللجاج .

وقد ذكر بعض الرواة أن المعري شرب السم - بعد أن فضحه داعي الدعاة وأمره بالحضور اليه والاقرار أمامه بالإسلام - وهو قول لم يؤيده دليل ، على أنه لو وقع لكان له صدى عظيم ، ولأشار إليه ولو واحد من الشعراء الذين رثوه وقد نيفوا على الثمانين شاعراً .

ويقول بعض الناس : « لعله مات غماً بعد أن ظهر أمره وهتك ستره » وتقول بدورنا : « ولعل أجله المحتوم قد وافاه حينئذ فتأول الناس هذه المصادفة شتى التأويلات »

ومن حق القارئ أن يعرف من هو داعي الدعاة وما هو مذهبه الاسماعيلي الذي وعدنا بالإشارة اليه في هذا

المقال حتى يقدر تماماً شخصية مناظر أبي العلاء ، ويتبين
مرعى فيلسوف المعرة . أما داعي الدعاة فقد كانت رتبته
تلي قاضي القضاة وكان يتزيا بزيه وكان ينوب عنه أحيانا ،
وهو يتناول مائة دينار كقاضي القضاة سواء بسواء .

قالوا : « وكان عالما بجميع مذاهب أهل البيت يقرأ
عليه ، ويأخذ العهد على من ينتقل من مذهبه الى مذهبهم ،
ويعين يديه من ثقباء المعلمين اثني عشر تقييا ، وله نواب
كنواب الحاكم في سائر البلاد ، ويحضر اليه فقهاء الدولة
ولهم مكان يقال له دار العلم وجماعة منهم على التصدير بها
أرزاق واسعة » قالوا : « وكانت وظيفته من مفردات
الدولة الفاطمية . »

المذهب الإسماعيلي

أما المذهب الذي نصبوا أنفسهم لإذاعته والدفاع عنه
فهو المذهب الإسماعيلي ، ويسمون الإسماعيلية بالباطنية
لأنهم يقولون « إن لكل ظاهر من الأحكام الشرعية باطنا
ولكل تنزيل تأويلا » . والإسماعيلية كما قالوا — مرتبة

على تسع منازل دعوة بعد دعوة ، وسرها محجوب عن غير أهلها ، وقد بالغوا في تكتمه والاحتفاظ به ووضعوا لذلك نظاماً أدق من نظام الماسونية وأحفظ لاسرارها . ومن أعجب ما في الاسماعيلية أنها تنتهي بالاحتكام إلى العقل وترك الشرائع والديانات ظهرياً ، حينما يسلك أصحابها في الوصول إلى هذه النتيجة كل طريق يأبأها العقل ولا تلتزم المنطق الصحيح ، لأنها معتمدة على المغالطات اللفظية والمشابهات العرضية والبعد عن جواهر الأشياء وحقائق معانيها وتلمس مواطن السفسطة والتهويز فيها .

والدعاة يبدؤن بالتمدح بالشريعة الاسلامية والتغني بفضائل النبي ثم يتخذون من ذلك وسيلة إلى بث آرائهم الخبيثة وبعد أن يخلد اليهم المسترشد بالثقة ويلقى إليهم بقياده يبدؤون في :

المرتبة الأولى

بتشكيكه في دينه ويعرضون عليه طائفة من المعميات

والأسرار الغامضة ليزلزلوا بها عقيدته و يقينه الثابتين ،
فإذا تم لهم ذلك ضنوا عليه بكشف هذه الأسرار وفك
تلك الطلاسم ^(١) وثمة يقول له الداعي :

« يا هذا ، إن الدين لمكتوم ، وإن الأكثر له
منكرون وبه جاهلون ، ولو علمت هذه الأمة ما خص
الله به الأئمة من العلم لم تختلف . وإن الآفة التي نزلت
بهذه الأمة وشتت الكلمة وأورثت الأهواء المضلة هي
ذهاب الناس عن أئمة نصبوا لهم وأقيموا حافظين لشرائعهم
يؤدونها على حقيقتها ويحفظون معانيها ويعرفون بواطنها .
غير أن الناس لما عدلوا عن الأئمة ونظروا في الأمور بعقولهم
واتبعوا ما حسن في رأيهم وقلدوا سفلتهم وأطاعوا ساداتهم

(١) و كان يقول له الداعي : « ولا تجعل فان دين الله اعلی ولجل من ان يذل لنفسه
الله و يجعل غرضاً لله ب » ثم يأخذ عليه عهداً و موافق مستمدا في ذلك الى تأويل الآية
« واذ اخذنا من النبيين ميثاقهم و منك ومن نوح وابراهيم وموسى وعيسى بن مريم و اخذنا
منهم ميثاقاً عظيماً . و ما ياتلها من الايات . ثم يقولون له : « فاعطنا صفقة من بينك
وعاهدنا بل نؤكد من ايمانك و عهدك ان لا تنفسي لنا سرا و لا تظهر علينا احدا ولا تطلب
لنا غيلة ولا تكتمنا نصحا ولا توالي عدوا النخ » فلما اعطى الله الداعي : اعطاه جملة
من مال الله ما يكشفنا لك من الاسرار » وثمة يقرر الداعي المجلس الذي يراه — فان
امتنع امسك عنه .

طلباً للدنيا التي هي بأيدي الفسقة الذين يحبون العاجلة
ويجتهدون في مكايده الرسول صلى الله عليه وسلم في أمته
وتغيير كتاب الله ومعاندة الخلفاء الأئمة »

وهكذا إلى أن يقول :

« فإن دين محمد ليس - كما عرفته العامة - سهلاً هيناً بل
هو صعب مستصعب وعلم خفي غامض ستره الله في حجه
وعظم شأنه من ابتذال أسرارهِ . فهو سرُّ الله المكتوم
الذي لا يطيق حمله ولا ينهض بأعبائه إلا ملك مقرب أو
نبي مرسل أو عبد امتحن قلبه للتقوى »
فاذا أنس منه إقبالا نقله إلى :

المرتبة الثانية

وفي هذه المرتبة يقرر له أن الله اختار لعباده أئمة
يهدونهم إلى الصواب ويبينون لهم شريعته التي نصبهم الله
لحفظها على ما أَراده .

فاذا عرف ذلك نقله إلى :

المرتبة الثالثة

فيقرر له أن الله جعل عدد الأئمة سبعة كما جعل عدد الكواكب السيّارة سبعة^(١) كما جعل السموات سبعة والأرضين سبعة ومنافذ الوجه سبعة إلى آخر هذه المغالطات . ويعدون من هؤلاء الأئمة محمد بن اسماعيل زعيم مذهبهم ، ولا يلبثون أن يقرروا له أن عنده وحده علم المستورات وبواطن الأمور التي لا يمكن أن توجد عند غيره فهو وحده الذي عنده سر الله تعالى وتأويل آياته الخ ويقررون له أن دعائه هم العارفون بذلك كله من بين سائر طوائف الشيعة لانهم أخذوا عنه . فإذا أقنعوه بذلك نقولوه إلى :

المرتبة الرابعة

وثمة يقرر له الداعي أن عدد الأنبياء الناصخين للشرائع المبدين لأحكامها سبعة - كعدد الأئمة وعدد الكواكب الخ وأن كل واحد منهم لا بد له من صاحب يأخذ عنه دعوته

(١) وقد كتبوا حيث لا يعرفون منها إلا سبعة

ويظاھرہ علیہا فی حیاتہ ثم یورثہا خلفاً لہ وھکذا .
ويعدون من هؤلاء السبعة محمد بن اسماعيل الذي انتهى إليه
علم الاولين والآخرين وعلم بواطن الامور وكشفها الخ
ويؤكدون له أن الهداية والرشد في موافقته والخيرة في
العدول عنه .

فاذا تم ذلك نقلوه إلى :

المرتبة الخامسة

وفيها يقررون أنه لا بد لكل إمام قائم في كل عصر
من حجج متفرقين في جميع الأرض وعدتهم اثنا عشر رجلاً
— بعدد بروج السكواكب وشهور السنة — لان الله لم
يخلق هذا النظام عبثاً ، ثم ينقلونه إلى :

المرتبة السادسة

وفيها يفسرون شرائع الإسلام - من صلاة وزكاة وحج
وطهارة - بأنها رموز وقروض قد وضعت لمصلحة العامة
وسياستهم حتي يشتغلوا بها عن بني بعضهم على بعض ،

وأنت لهذه الرموز معاني غير ما تدلُّ عليه ظواهرها .
ويحقرُّون لهُ أمر السمعيات ويهونون عليهُ شأنها طالين
إليهُ أن يقتصر على الأدلة العقلية وحدها — بعد أن يجبيوه
في الفلسفة والنظر في كلام أفلاطون وأرسطو وفيثاغورس
وأضرابهم . ثم ينقلونهُ بعد أن يثقوا منه إلى :

المرتبة السابعة

فيقررون لهُ أن الناصب للشرعة لا يستغنى بنفسه ،
ولا بدَّ لهُ من صاحب معه يعرضه ليكون أحدهما
الأصل والآخر هو الذي صدر عنه — كالعالم السفلى —
الذي صدر عنهُ ثم ينقلونه إلى :

المرتبة الثامنة

وفيها أن مُدبِّر العالم إنما تقدَّم على البادر عنه تقدم
العلَّة على المعلول وثمة كانت الاعيان كلها ناشئة وكائنة عن

الصادر الثاني. وأن السابق - مع ذلك - لا اسم له ولا صفة ولا يعبر عنه ولا يقيد، فلا يقال: «هو موجود ولا معدوم، ولا قادر ولا عاجز، ولا قديم ولا محدث» بل القديم أمره وكلته والمحدث خلقه وفطرته. وإن الثاني يدأب في أعماله حتى يلحق بمنزلة السابق. وليس معنى يوم القيامة والقرآن والثواب والعقاب - كما يفهمه العامة - بل هو حدوث أدوار عند انقضاء أدوار من أدوار الكواكب. ثم ينقلونه الى:

المرتبة التاسعة

وهي نهاية ما يرى اليه الداعي - بكل ما سلكه من ضروب السفسطة والمغالطات والثروة - وفيها يقول للمدعو: «ان كل ما ذكر - من الحدوث والأصول - رموز الى معاني المبادئ وتقلب الجواهر، وليس الوحي إلا صفاء النفس، وإن الانبياء ينظمون الشرائع بحسب حاجة الدهماء، فهم لا يصلحون للخاصة. أما أنبياء الخاصة فهم الفلاسفة وخدامهم»

ويقولون لهم: « أن وجود الامام إنما هو في العالم الروحاني
إذا صرنا إليه بالمعارف والرياضة وان ظهوره الآن إنما هو
ظهور أمره ونواحيه على لسان أوليائه . »

أرأيت من هو داعي الدعاة الذي يتصدى لتفسيق
المعري والتشنيع عليه باسم الدين ؟

أرأيت هذا الرجل الذي ينقض الدين من أساميه ثم
يعنف المعري جاهداً لأنه خالف الدين مخالفة صريحة حين
ترك أكل اللحوم رحمة بالحيوان ؟

« جنوا كبائر آثام ، وقد زعموا

أن الصغائر تجنئ بالخلد في النار »

ألا ترى الى هذا الرجل الذي ينطبق عليه قول المعري :

« يا ظالماً عقد اليدين مصلياً

من دون ظلمك يعقد الزنار »

وقوله :

« بخيفة الله تعبدتنا

وأنت عين الظالم اللاهي

تأمرنا بالزهد في هذه الدنيا .

يا ، وما همك إلا هي »

والآن بعد أن عرفنا حقيقة هذا الرجل فلننظر
على ضوءها ما حوته الرسائل التي دارت بينه وبين
المعري. (١)

بين المعري وداعى الدعاة^(١)

« أنا ذلك المريض رأياً وعقلاً ،
وقد أتيتك مستشفياً فلتشفى . »
داعى الدعاة

قلنا فى المقال السابق : إن داعى الدعاة لم يرد مناقشة أبى العلاء للاسترشاد والاستفادة منه بل قصد إلى التحرش به قصداً ورنى إلى استفزازه وإحراجة وتسوى سمعته . وقد لخصنا المذهب الانماعلى الذى كان يدعو إليه داعى الدعاة ليعرف القارىء أن الغيرة الدينية كانت آخر شئ يدور بخلد داعى الدعاة ، وأن الخصومة الشخصية والمآرب السياسية هما وحدهما الحافز الأول والأخير . وما كان المعري ليجهل خطر داعى الدعاة ومرامي

كلماته ، وما كان لينسى أن في ثنايا تواضعه الذي يذيمه
 - في أثناء كلامه - كبرياء وسخرية دونهما كل كبرياء وسخرية.
 ولعل القارىء لا يخفى عليه ما يعنيه بقوله : « أنا ذلك
 المريض رأياً وعقلاً ، وقد أتيتك مستشفياً فاشفى » .
 فهو يقرع المعرى ويسخر منه في صورة التواضع
 المسترشد .

وقد جامله المعرى في رسائله بكل ما وسعه طوقه من
 مجاملة ، وغمره بعبارات الثناء والمديح رغبة في صد هجاته
 ودفعاً لشره ، فما أغنت هذه المجاملات إلا قليلاً ، وكان
 المعرى لا يكاد يجيبه عن سؤال إلا زَجَّ في نضاعيف إجابته
 أمثال هذه الجمل :

« سيدنا الرئيس الأجل ، عصمة المؤمنين هدى الله
 الأمم بهدايته وسلك بهم طريق الخير على يده » « ضَوْأُ الله
 الظلم يصيرته وأذهب شكوك الأفتدة برأيه . » « أيد الله
 الحق بحياته . » « أدام الله قدرته . » « عصمة المؤمنين لازالت
 القلوب معمورة بعظاته . » « لا زال يُضَوَّى قلوب

المؤمنين » « جل الله بحياته الشريعة ونصر بحجته الملة . »

فإذا رآه يتمثل ببیت المتنبی فی إحدى رسائله أكبر منه هذا وعده تفضلاً منه على المتنبی ، وقال : « وأما مثله ببیت أبي الطیب ، فلو بلغه ذلك لا تبهج إذ كان مثله يتمثل بشيء مما نظمته . » وبيالغ المعری فی مجاملته والتعجب إليه فيقول : « ولو ناظر أرسطاطاليس لجاز أن يفحه أو أفلاطون لبند حججه خلفه »

وقد حاول المعری أن يتنصل من الرد عليه — حين رأى ما يرمى إليه وتعلل — بضعفه وشيخوخته ، وأنه لو مثل في حضرة « داعي الدعاة » لعلم أنه لم يبق فيه بقية لأن يسأل ولا أن يجيب لأن أعضائه متخاذلة وقد عجز عن الصلاة قائماً وإنما يصلي قاعداً . »

ثم يقول — : « وإني لأعجز — إذا اضطجعت — عن القعود ، فربما استعنت بإنسان فإذا هم بأعاتى وبسط يديه لينهضني اضطربت عظامي لأنهن عاريات من كسوة كانت

عليهن فمرتبن منها الأوقات المتبادية ، وإنما عنيت ما كان
من اللحم ^(١) »

ويقول : « وسيدنا الرئيس الأجل صاحب ورع
ودين وهداية ينتفع بها المهتدون ومن استرشد بمثل العبد
الضعيف الماجز ^(٢) فإنما مثله مثل من طلب - في القتادة - ثمر

(١) وقريب من هنا قوله في رسالة الملائكة :

« وحق لئلي أن لا يسأل ، فإن سئل تمنع عليه الا يجيب ، فإن أجاب ففرض
على السامع الا يسمع منه فإن خالف بإسماعه فريضته ألا يكتب ما يقول ،
فإن كتبه فواجب أن لا ينظر فيه ، فإن نظر ما فقد خبط خبط عشواء ، وقد بلغت
من الاشياخ بما صار يندى بضع من هذا المذيان ، والظن ان الاخرة قريب الخ »
وقوله في القرويات :

أصبحت كالقوس حتمها أساورها وكنت كالسيف أو كالسهم ينصلت
(٢) عودنا المعرى الإقراط في التواضع كما عودنا الإقراط في ذم نفسه وتنقصها
دائماً ، فهو القاتل :

« رويك لا تنفرد يا اخي بي فانا الرجل الساقط
ولو كنت ملقى يظهر الطريق لم يلتقط مثل اللاط »

وهو القاتل : —

« دعيت أبا العلاء وذلك حين ولكن الصحيح أبو القول »
والقاتل : —

« تشابه أفسس الحشرات ضى يكون لمن بالصيف ارتباط »
والقاتل : —

« اقررت بالجهل ولدي ضى قوم قمارى وامرهم عجب »
والحق أتى وانهم هدر لست نجياً ولا هم نجيب »

النخلة. وإنما حمل سائله على ذلك حسن الظن الذي هو دليل على كرم الطبع وشرف النفس وطهارة المولد وخالص الخيم. ومن استرشد بسيدنا الرئيس الأجل المؤيد في الدين — أجزل الله حظ الإسلام بدوام أيامه — كان كطالب الذهب من معدنه. »

ويقول : « وهو بكتابه إلى متواضع ، ومن أناحتى يكتب مثله لمثلي ، مثله في ذلك مثل الثريا كتب إلى الثرى الخ » ولكن ماذا يعني مناظره من ذلك كله ؟ إنه يريد من المعري — كما يقول — جواباً صريحاً يشفي الغلة ، وقد رأى في هذه المجاملات ما يضيع عليه القصد ، فقال في ختام رسالته : إنه يريد منه الاستدلال ورفض الحشمة وحذف تكلف الخطاب « سيدنا » و « الرئيس » وما يجزى هذا الجري ، لأنه — فيما يزعم — لا يريد أن يتخال كلامهما شيء من زخارف الدنيا .

وقد طلب إلى المعري أن يكف عن السجع حتى لا تضيع المعاني بين شتى أسجاعه ، فقال :

«ثم إن قام من الشيخ نشطة لجواب اعقاني فيه من قصد
 الأسجاع ولزوم ما لا يلزم، فإن ملتصقي فيه المعاني لا الألفاظ .
 وقد أدرك المعري ما يعنيه داعي البعاع بهذا الرجاء ،
 فلم يأل جهداً في إضاعة قسم كبير من رسائله التالية في الدفاع
 عن السجع والانتصار له . وقد أحسن المعري في دفاعه عن
 السجع ونحى لذلك الدفاع أقوى الحجج والبراهين ، وأيد دفاعه
 بما استشهد به من الأحاديث والآيات القرآنية ليسد عليه
 هذه الطريق .

دفاع المعري عن السجع

على أن السجع كاد يصبح من مقتضيات هذا العصر
 ولو أزمه، وقد أفلتت من داعي الدعاة عذة سجعيات - جاءت
 عفواً في رسائله - لتغلب السجع عليه وعلى معاصريه جميعاً .
 ولم يكن بدعاً أن يولع المعري بالسجع بعد أن رأيناه يولع
 بكل قيد - من قيود الحياة - فيرضى لنفسه بالحبس، ويحررها
 لذات الحياة ونعمها الجمالية ، ويروضها على التزام

مالا يلزم في الشعر، فيضاعف قيد القافية، الى آخر ما أخذه
نفسه من هذه القيود .

وقد دافع المعري عن السجع بأن الناس في الإسلام قد
استحسنوا السجعات وكثرت في خطيبهم ومراسلاتهم فقاما
يخطب بخطبة على منبر الأ وفيها سجع . قال :
وأما خطباء العراق فلهم خطب تكون من أولها إلى
آخرها مسجوعة - على الباء أو التاء وغيرها من الحروف -
وروى أن بعض الملوك قال لبعض الفقهاء :

« بلغني أنك تحب السجع » فقال « نعم . » وقرأ
عليه آيات من قوله تعالى : « والشمس وضحاها ^(١) »

والفواصل التي جاءت في الكتاب الأشرف على
ضروب منها ما هو متباعد لا يجري مجرى السجع ، وفيها

(١) يشير الى الايات الكريمة :- « والشمس وضحاها ، والقمر اذا تلاما ، والنهار اذا

جلها ، والليل اذا يشها ، والسماء وما بناها ، والاخرى ما طحاها ، وتضروها حواما ، فاعلمها

فجورها . وقواها الخ »

ما يجري مجرى المسجوعات ، كقوله تعالى :
 « والفجر وليال عشر ، والشفع والوتر » وكذلك
 قوله - « ألم تر كيف فعل ربك بعاد (٢) »

وقد أبدع المعري ما شاء له ظرفه وكياسته أن يبدع ،
 فقال يداعب داعي الدعاة ويسخر من الذين يحرمون السجج :
 « ولو علمت الحماهم الساجفة ان الله - سبحانه - أو نبه (ص)
 يكره سجيها على الفصون ، لحرمست عنه وتبرأت منه ،
 وكذلك النوق الموصوفة بأنها ساجعات ، كما قال تميم بن نويرة :
 « إذ خنت الأولى سجعن لها معاً . »

ثم علل النهي عن السجع بقوله : « وإنما كرهه النبي
 (ص) لأنه كثرت في كلام الكهان فنهى عنه غير محرم له ،
 وقد روى عنه كلام مسجوع الخ . »

محور الرسائل

أما المحور الذي دارت عليه الرسائل فهو سر امتناع المعري

(٢) يشير إلى الآيات السريمة :— « ألم تر كيف فعل ربك بعاد ؟ أرم ذات العباد
 التي لم يخلق مثلها في البلاد ، وثمود الذين جليوا الصخر بالواد ، وفرعون ذي الأوتاد . »

عن أكل اللحم : وقد أحسن المعري ظنه بسأله في رسالته الأولى ، فلما رأى في رده عليه ما يبيته له ، رجع على أعقابهِ وراح يتلمس - من المعاذير - كل ما وسعهُ . وما زال مناظره يضيق عليه الخناق حتى دفع آخر عذر له ، وهو الفقر ، فقال له :-

« وقد كاتبته مولاي تاج الامراء - حرم الله عزه - أن يتقدم بإزاحة العلة فيما هو بُلْغَةُ مثله من ألد الطعام ، ومراحاته على الإدرار والدوام ، ليتكشف عنه غاشية هذه الضرورة ، ويجرى أمره على أحسن ما يكون من الصورة (١) »
ولكن المعري اعتذر عن قبوله الزيادة في رزقه بأبلغ اعتذار وأرق أسلوب فقال :-

« وأما ما ذكره من المكاتبه في توسيع الرزق فيدل على إفضال ورثه عن أب فأب ، وجد في أثر جد ، حتى يصل النسب إلى التراب . فالعبد الضعيف العاجز ماله رغبة في التوسع ومعاودة الأُطعمة - وتركها صار له طبعاً ثانياً -

(١) وهذه امثلة من صفحات داعي العلة الذي نهي المعري عن التسرع

وانه ما أكل شيئاً من حيوان خمساً وأربعين سنة .

« والشيخ لا يترك أخلاقه

حتى يوارى في ثرى رمسه . »

وقد علم أن السيد الأجل تاج الأمراء فخر الملك عمدة
الإمامة وعدة الدولة ومجدها ، وود لو أن قلعة حلب وجميع
جبال الشام جعلها الله ذهباً لينفقه تاج الأمراء ، نصير الدولة
النبوية — على إمامها وكذلك على الأئمة الظاهرين من
آبائهم — من غير أن يصير إلى العبد الضعيف من ذلك
قيراط . وهو يستحي من حضرة « تاج الأمراء » أن ينظر
إليه بعين من رغب في العاجلة — بعد ما ذهب . وهو رضى
أن يلقي الله — جلّت قدرته — وهو لا يطالب إلا بما فعل
من اجتناب اللحوم ، فإن وصل إلى هذه المرتبة فقد سعد .

وليس عجيباً من داعي الدعاة هذا الإصرار ، وما هو بعجيب
من أبي العلاء أن يصّر على امتناعه وإيائهم رغم ما في هذا
الإصرار من استخاط مناظره العنيد .

وكيف يرضى أبو العلاء أن يريق دم حيوان ، بعد
أن وصل به العطف على كل ذى روح إلى أبعد غاياته ،
فأصبح يشفق على البرغوث وينهى عن قتله ويدل على
رأيه تدليلاً جدياً - غير عابث ولا هازل - فيقول :

« تسريح كفك برغوثاً ظفرت به
أبرئ من درهم تعطيه محتاجاً . »

ولماذا ؟

« كلاهما يتوقى - والحياة له

عزيزة - ويروم العيش محتاجاً . »

ثم يغضب للغراب ، فيطلب إليه أن يحزى الناس على
ظلمهم عدواناً بعدوان وإساءة بإساءة ، إذ يقول :

« جر يا غراب وأفسد ، لا أرى أحداً

إلا مسيئاً وأى الناس لم يجر ؟

لو كنت حارس أثمار لهم ينعت

— وصادفوك — لما أخلوك من حجر »

ويتألم للعصفور يعذبه الوليد القاسى ببلارحمة ولاشفقة فيقول :

« وابلك على طائر — رماه فتى
 لاه — فأوهى بفهره^(١) الكتفا
 بكّر يبنى المعاش مغبطاً
 فقصّ — عند الشروق — أو نتفا
 كأنه في الحياة ما فرغ^(٢) النصف
 ن ، فغنى عليه أو هتفا . «
 وينهى عن أكل البيض فيقول :
 « ولا تأخذ ودائع ذات ريش
 فالك أيها الإنسان بضنة . »
 الى آخر هذه الأمثلة التي امتلأت بها لزومياته .

ومن أظرف ما يلاحظه المتأمل أن المعرى لم يظهر
 رضاه عن ذبح الحيوان في الدار الآخرة — في رسالة الغفران —
 إلا بعد أن تخيل أن الحيوان يجد في ذبحه لذة لا تعاد لها
 لذة ، وأنه — بعد أن يذبح — يعود سيرته الأولى فإذا

(١) الفهر : الحجر على الخف

(٢) علا

عظامه قد اكتسبن لحماً وساريتن خطر في مشيته في الفراديس
كما كان يفعل قبل ذبحه .

وما لنا نذهب بعيداً وقد ألم المعري بفلسفته النباتية
في قصيدته الحائية التي اتخذها داعي السماة تكأة يرب بها
هذه المناظرة الحامية الوطيس .

فهو يقول في هذه القصيدة الرائعة التي لخص فيها
شريعته النباتية أبدع تلخيص :

« فلا تأكلن ما أخرج الماء ظالماً
ولا تبغ قوتاً من غريض الدبائح . »
ويدافع عن ذلك بقوله في رسائله :

« ولا يقدر أحد أن يدفع أن الحيوان البحري لا يخرج
من الماء إلا وهو كاره ، وإذا سئل المبعول عن ذلك لم يبيح
ترك أكله — وإن كان حلالاً — لأن المتدينين لم يزالوا
يتركون ما هو لهم حلال مطلق . »

ثم ينهى عن استعمال اللبن في قوله :

« وأيض أُمَاتٍ أَرَادَتْ صَرِيحُهُ

لأطفالها دون الفواني الصرائح . »

وهو يريد بالأبيض « اللبن » ، ويقول في تبرير رأيه

في رسائله هذه :

« واذ ! قيل إن الله - سبحانه وتعالى - يساوى بين عباده في

الأقسام ، فأى شيء أسلفته الذبائح من الخطأ حتى يمنع حظها

من الرأفة والرفق ؟ »

ثم يقول :

« ولا تفجعن الطير - وهى غواقل -

عما وضعت ، فالظلم شر القبايح . »

وقد دلل أبو العلاء على صحة رأيه هذا ، متخذاً من

قول الرسول : « أقرؤا الطير في وكناتها » وما ورد في القرآن

- من النهى عن صيد الحرم - تكةاً يبرر بها قصده ويقول :

إنه لالوم عليه إذا طلب التقرب إلى رب السموات والأرضين بأن يجعل صيد الحل آمناً كصيد الحرم .
وقد نهى عن استعمال العسل - كما نهى عن استعمال اللبن - فقال :

« ودع ضرب النحل الذي بكرت له
كواسب من أزهار نبت فوائج
فما أحرزته كي يكون لغيرها
ولا جمعه للندى والمنايح . »

وعزز هذا الرأي في رسائله بقوله : « لما كانت النحل تحارب الشائر عن العسل بما تقدر عليه وتجتهد أن ترده من ذلك ، فلا غرو أن عرض عن استعماله رغبة في أن تجعل النحل كغيرها مما يكره ذبح الأكيل وأخذ ما كان يعيش به لتشر به النساء كي يبدن . »

ولو عرف داعي الدعاة توكيد صديقنا الدكتور أبي شادي أن بعض النحل هادي . وديع لا يحارب الشائر عن العسل كالنحل الكر نيولى والقوقازى لاحتج بهذا الرأي على أبي العلاء .

وقد ذكر أبو العلاء شيئاً من كلام العرب ليدل
به على صحة رأيه ، ويثبت ما يعاينه الحيوان من الألم ،
كقول قائلهم ، يصف ما يلحق الناقة من الألم والوجد
إذا فقلت فصيلها :

« فما وجدت كوجدى أم سقب

أضلته فرجعت الحنينا . »

وقد قال المعري : « وإن الضائنة تكون في محل
القوم — وهى حامل — فإذا وضعت وبلغ ولدها شهرا
— أو نحوه — اعتبطوه فأكلوه ورغبوا في اللبن ، وباتت
أمه ثاغية لو تقدر لسعت له باغية . »

وفي هذه الصورة من الألم والروعة ودقة التصوير
ما لا يخفى على القارىء .

وقد نظم المعري في لزومياته قصيدة طويلة يمتدح فيها
الديك ويتغنى بفضائله وينعى على الصائم أن يفطر على
إزهاق روح ، فقال مخاطباً الديك :

« ولو كنتَ لى ما أرهفتُ لك مدية
ولا رام إفطارا بأكلك صائم . »
ونحب أن يمتع القارىء نفسه بقراءة هذه القصيدة
الفذة فى لزومياته .

ولكن ما لداعى الدعاة وهذه الخيالات الشعرية ،
إن الله قد أحلَّ ذبح الحيوان وأكله فما قيمة هذه الاعتبارات
بعد ذلك ؟ وما بال المعري يستأثر بالزهد فى هذه الطيبات ؟
إنه بلا شك رجل معاند جاحد ، ولا بد من إرغامه على
أكل اللحم وإحراجة بكل وسيلة ، فإذا عجز داعى الدعاة
عن ذلك فلا أقل من أن يظفر من كلامه بسقطة يظهره
بها أمام الناس بمظهر المعاند ثم يقول فى ختام رسائله :
« وقبل وبعد ، فأنا أعتذر عن سرله أذعته ، وزمان
بالقراءة والإجابة مشغلته ، لأنني — من حيث ما تقعته —
ضررته . »

(٣)

الخير والشر (١)

« تباركت يارب السموات صحتها

فليتك في سواها لم تبارك ! »

« ابرو العلاء »

« أبو العلاء — كما قلت في مقدمة اللزوميات — رجل
سوداوى المزاج ، مغمض في السخط على الحياة ، بالغ في
سخطه وبرمه مدى لا يشركه فيه إلا القليل النادر من
الفلاسفة المتشائمين . »

والمرعى لا ينظر الى الحياة إلا بمنظار شديد السواد،
فهو يراها طافحة بالشر مملوءة بالويلات والمصائب مترعة
بالأحزان والمتاعب ، وهو إن قال :
« نعم ثم جزء من ألوف كثيرة

من الخير ، والأجزاء بعد ضرور . »

لم يلبث أن يستكثر على الحياة أن يكون فيها جزء من
ألف كثيرة من الخير، فيقول :

« لا أزعم الصفو مازجا كدرًا »

بل مزعمى أن كله كدر . »

وقد ملأ لزومياته بالسخط والتبرم بالحياة ، بعد أن
برم بها — في سقط الزند — في مناسبات شتى فقال :

« تعب كلها الحياة فما أء

جب إلا من راغب في ازدياد »

وقال :

« تدعو بطول العمر أفواهنا

لمن تناهى القلب في وده

يسر ان مد بقاء له

والشر كل الشر في مده . »

على أن هذه الفلتات التي نعثر بها أحيانا في سقط الزند
قد أصبحت من الدعائم التي بنيت عليها فلسفته في
لزومياته ، فأصبح القارئ لا يكاد يظفر بصفحة احدة فيها

خالية من السخط والنقمة على ما يغمر العالم من شرور
وآلام . واللزوميات كلها صاخبة صارخة بهذه المعاني حافلة
بالتعبير عنها ، في سخرية هازئة مرّة ، وفي جد قاس مرّة
أخرى ، وفي ألم لاذع مرّة ثالثة ، وفي يأس مميت في أكثر
الأحيان . ألا تراه يقول :

« دما لي بالبقاء أخو وداد

رويدك إنما تدعو عليّا

وما كان البقاء لي اختيارا

لو أن الأمر موكل إلينا »

ويقول :

يسمى : « سروراً » جاهل متخرف

— بفيه البرى — هل في الزمان سرور؟

الى آخر هذه الايات التي امتلأت بها لزومياته كلها .

والحق أن المعرى لو بعث رسولا لدعا على قومه

دعوة نوح — عليه السلام — فقال : « رب لا تنذر على

الأرض من الكافرين دياراً ، إنك - إن تذرهم - يضلوا
عبادك ولا يلبوا إلا فاجراً كفّاراً .

وما لنا نتخيل ذلك ، وقد دعا على الناس هذه الدعوة
نفسها ، وأربى عليها إرباء ، فقال من قصيدة صارخة عنيفة :

« هل ينظرون سوى الطوفان يهلكهم
- كما يقال - أو الطير الأبايل ^(١) »

والمرى يعقت المرأة لأنها أداة النسل وهو لا يرى
في النسل الا شراً مستطيراً ، ويرى فيه جناية الآباء على
الآبناء ، ولو نال الآبناء أقصى مناصب الرفعة :

« على الولد ينجي والد ولو أنهم
ولاة - على أمصارهم - خطباء . »

(١) وفي هذه القصيدة يقول المرى :

« مضى الزمان ونفس المرء مولعة بالشر من قبل هابيل وقايل
لو غرّب الناس كيما يعدموا سقطا لما تحصل شيء في الترايل
أوقيل لقتار « نصى من جنى » اكلت اجسام وابت اكل السرايل »

لك أن يقول :

« سبحانه من المم الاتهام كلهم امراً يقود الى خيل وتخيل
لحظ المين واهواء النفوس واد واه الشفه الى ثم وتقبل »

ويقرر- في صراحة- أنه يود أن تخلو الدنيا من ساكنيها
ليخلصوا من شرورها ، ويقول إن الناس لو رأوا رأيه
« لعطلوا هذه الدنيا ، فما ولدوا

ولا اقتنوا ، واستراحوا من رزايها »

وهو يرى الشر متأصلاً في النفس والخير لا يأتي إلا
عرضاً ، فيقول :

« ألم تر أن الخير يكسبه الحجي

طريقاً وأن الشر- في الطبع- متلد. »

إلى آخر هذه الآيات التي يضيق المقام عن ذكر القليل
منها بله كثير .

والمعري يمقت الظلم السائد في العالم أشد المقت ، ويتألم
من فتك القوى بالضعيف ، ويندد بذلك في كل مناسبة ،
وهو يقرر - في صراحة تامة لا لبس فيها ولا إبهام -
أن الطبائع كلها مفسورة على هذا الجور ، مجبرة عليه ، وأن
البازي - بطبعه - يفرس القطا ، لأن الله - سبحانه - قد
أراد له ذلك

« ولو لم يرد جور البزاة على القطا
مكوئها ما صاغها بمناسر (١) »
وهو يرى الظلم مركباً في طبيعة الضعيف والقوى
على السواء
« كادت تساوى نفوس الناس كلهم
في الشر ما بين منبوز ونباز
ظلم الحمامة في الدنيا - وإن حسبت
في الصالحات - كظلم الصقر والباز. »

هذه هي وجهة الفلسفة العلائية في تفهم الخير والشر :

وفي ذلك يقول المرى :

« ولو لم يقدر خلق الليث قرصه لم يسطه الثاب والظفرا
وعما يحذر ذكره في هذا المقام بهذه المناسبة قول المرى :
« سبحانه من ألهم الاجناس كلهم امرا يقود الى خيل وتخييل »

وقوله :

« والله يحمد كلما طال المدى طمت الشرور وقلت الانخيار
الى آخر هذا الحمد الساخر الذى يذكرنا بقول القاتل :
« لك الحمد اما ما نحجب فلا نرى وننظر ما لا ننتهى » فلك الحمد ا »

فانظر إلى وجهة منظره - داعى الدعاة - ترها على التقيض منها ، وتجد داعى الدعاة « الذى يتوكأ على عصا العقل » - على حد تعبيره - يحاول إقناع المعري بوجوب أكل اللحم فيقرر له نظريات يدين المعري بما يناقضها كل المناقضة . فيقول داعى الدعاة : « أليس النبات موضوعاً للحيوان الذى يمتاز منه وبوجوده وجوده واستقامته فى حفظ أنواعه وولادة مواليده ؟ وإنما يستولى الحيوان على النبات بالقوة الحساسة التى ترجع بها على النبات من حيث كونه نامياً فقط وليس بحساس ، وعلى ذلك فالقوة الإنسانية مستولية على الحيوان استيلاء الحيوان على النبات لرجحانها عليه بالنطق والعقل ، وما ينبغى أن يكون أراف بها من خالقها » ويرى داعى الدعاة أن الله يريد ذلك كما يدل عليه وقوع المشاهدة لجنس السباع وجوارح الطير التى خلقها الله - سبحانه - على صنعة لا تصلح إلا لتنش اللحم وفسخه وتمزيق الحيوان وأكله . وإذا كان هذا الشكل

قائم العين في الفطرة ، كان جنس البشر وسيع العذر في
أكل اللحوم . »

ويقول داعي الدعاة : « وإما أنه ^(١) يجد سفك
دماء الحيوان خارجاً من أوضاع الحكمة ، وذلك
اعتراض منه على الخالق الذي هو أعرف بوجوه الحكمة . »

فأنت ترى الهاوية السحيقة التي تفصل بين النظريتين،
وترى من ذلك أن المعري لم يكن له بد من تقرير نظريته
مع ما في ذلك من الخطر الجسيم الذي يتهده حين يقررها.
وقد أفاض المعري في إقناع مناظره أن الحيوان كله إحساس
يقع به الألم، ثم انتقل إلى المشكلة الخطيرة التي عرض لها
داعي الدعاة في رسائله ، فقال :

« إذا تبينا القضية المركبة من مُسند ومُسند إليه ،
ولها واسطتان إحداها نافية والأخرى استثنائية ، فقلنا :
« الله لا يفعل إلا خيراً » أفهذه القضية كاذبة أم صادقة ؟

(١) يعني المعري .

فإن قيل : « إنها صادقة » رأينا الشرور غوالب ، فعلمنا أن ذلك سر خفي . ثم ذكر المعرى طائفة من الشرور التي لا يستطيع مناظره أن يجحد أنها شرور ، كموت إبراهيم ولد النبي (ص) وقتل حمزة عمه وقتل الحسين وسم الحسن وقتلى أحد ، وكيف فجع أبو ذؤيب في بنيه السبعة الذين شربوا من لبن قد شربت منه حية ثم قاءت فيه فهلكوا في يوم واحد الخ .

وسأل مناظره : « أفهذه الأشياء خيرات أم شرور ؟ »

فإن قال قائل : « هي مخوفة منكورة » فقد أبطل القضية التي هي متقدمة ، وإن قال : « القضية المذكورة لا تصح ، فالسائل بسِّيء الأدب يلح ، وإن قال : « القضية منعكسة » فقد لزمه أن يقول : « إن الله -- سبحانه -- يفعل الخير والبشر . » فإن أبي ذلك رجع إلى ما يقوله المجوس من أن للعالم خالقين أحدهما فاعل الخير والآخر فاعل الشر . ومعاذ الله أن تقول هذه المقالة .

ثم قال المعري : وللسائل أن يقول « إن كان الخير لا يريد ربنا سواه ، فالشر لا يخلو من أحد أمرين ، إما أن يكون قد علم به ، وإما أن يكون غير عالم به — ونعوذ بالله من هذه المقالة — فإن كان عالماً به فلا يخلو من أحد أمرين : إما أن يكون مریداً له أو غير مرید ، فإن كان مریداً له فكأنه هو الفاعل ، كما أن القائل يقول : « قطع الأمير يد السارق » ، فالأمير قطعها إلا أنه لم يل ذلك بنفسه. وإن كان غير مرید له فقد جاز عليه ما لا يجوز على أمير — له في الأرض نظراء كثير — لأنه إذا فعل في ولايته شيء لا يرضاه نكره أشد نكير وأمر بزواله . »

هذه هي المقد التي قد جهد في حلها المتكلمون — من أهل الشرائع — فلم يجدوا لها انحلالاً ، وأصبح مقامهم ضللاً .

ولما أحس المعري أنه قد ضيق على مناظره الخناق ، أخذ يناقشه في مسألة « الرأفة » التي بنى عليها نظريته ، فقال المعري بجرأة عجيبية :

ويقول القائل : قد ذكرت الأنبياء أن الباريء
— جلّت قدرته — رءوف رحيم، ونشاهد ماهو — على غير
ذلك — دليل ، لأنه لو رَأَفَ يبنى البشر لوجب أن يرَأَفَ
بغيرهم من أصناف الحيوان الذى يحد الألم بأذى شئء ،
ولمَ يخصّ الإنس بذلك وهم الذين يجنون الكبائر
ويقدمون على آتيان الذنوب ؟ وقد رأينا الجيشين المنتسب
كل واحد منهما الى الشرع المنفرد ، وكلاهما فى مدد ويقتل
بينهما آلاف ، أفهذا محسوب من أى الوجهين ؟

وإذا قيل إن الباريء رءوف رحيم فلمَ يسلط الأسد
على اقتراض نسمة إنسية ؟ ولمَ مات بلدغ الحيات جماعة
مشهورة ؟ وما الطير الراضية بلقط الحبة ، الراجعة بها إلى
الأحبة ، فسُلِّطَ عليها باز أو صقر فنحها من النقر ؟
وإن القطة لتدع فراخها ظمأ وتبتكر لترد ماء فيصادفها
أجدل فينال الظفر بقوته ويهلك أفراخها أواماً .

وقال بعض الملحدة فى الآية : « وإنه أهلك عاداً
الأولى ، وثمود فما أبقى ، وقوم نوح — من قبل — إنهم كانوا

هم أظلم وأطغى ، والمؤتفكة أهوى ، فغشاها ما غشى »
 إن كان البارئ - جلّت قدرته - خلقهم وهو يعلم أنهم
 مجرمون ، يحرمون التوبة ولا يرحمون ، فكان ينبغي أن
 لا يخلقهم ، لأن خلقهم أدام إلى العذاب والتجرع من
 الصاب ، وإن كان لا يعلم بما يصيرون إليه فهو كغيره من
 الفاعلين . وقد يربى الرجل ولدًا فيكون حاكمًا ، أو يملك عبدًا
 فيخرج معاندًا مُشاكًا ، ومعاذ الله أن نقول ذلك ؟ »

وقد نلخص المعرى في هذه السطور القليلة فلسفته المبعثرة
 في أشتات كتبه - واللزوميات خاصة - وأبان بصريح العبارة
 عما يعتقد اعتقادًا جازمًا ، وإن حاول أن ينسب هذه
 الآراء إلى غيره ويقنع داعى الدعاة بأنه راوية لا أكثر
 ولا أقل . فقد طالما ألفنا منه هذا الأسلوب في رسالة الغفران
 واللزوميات وغيرهما من كتبه .

على أن داعى الدعاة قد أدرك غرض المعرى إدراكًا
 صحيحًا ، وبعث إليه يقول :

« أهذه هي أنباء الأمور الصالحات » التي يهذى بها
من استهذى ؟ وهل زاد السقيم بدوائه هذا إلا سقمًا ،
والأعمى الأصم - في دينه وعقله - إلا عمي وصمًا ؟ »
ويقول : « وأما ما تبع هذا الفصل من ذكر فجعية
رسول الله (ص) بإبراهيم ولده - عليه السلام - وذكر سم
الحسن وقتل الحسين الخ الجارى كله على سياقة واحدة ،
والاستخبار عن كون ذلك خيرًا أو شرًا ، فهو داخل في
مضمار التقاسيم المذكورة التي عدتها وتركتها في غواشي
ظلماتها . فقد سبق القول : إنه ما حل في السؤال الأول
عقلاً ، بل زاد بهذه الأمثلة تيهًا وضلالاً .

وأما قوله في أن اللحوم لا يوصل إليها إلا بإيلام
الحيوان الخ ، فقد سبق القول بأنه لا يكون أراف بها
من خالقها ، فليس يخلو من كونه عادلاً أو جائراً فإن كان
عادلاً فانه - سبحانه - يقبض أرواح الآكل والمأكول
جميعاً ، وذلك مسلم له ، وإن كان جائراً لم ينبغ أن نرجع
على خالقنا بعدلنا وجوره .

وأما قوله : « وللسائل أن يقول ان كان الخير هو الذى لا يريد ربنا سواه الخ »
فأقول فى الجواب : « قيل إن إنساناً ضاع له مصحف فقيل له :

« اقرأ الشمس وضحاها فإنك تجده » فقال : « وهذه السورة أيضاً فيه . »

فكذلك أقول : « إن هذا أيضاً من ذلك ، وجميعه ظلمات فأين النور ؟ وإنما قصدناه للنور ، لنعرف أنباء الأمور الصالح ! »

(٤)

اثر هذه الرسائل في تسوية سمعة المعري

« وقبل وبعد ، فانا اعترف عن سر له اخفته ،

وزمان بالكتابة والاجابة شففته ، فاقنى

— من حيث ما نفعت — ضرره »

« داعي اللعنة »

وهكذا أصدر داعي اللعنة قرار الاتهام من أعلى منصة تشريعية في ذلك الزمن المنكود ، وأصدر داعي اللعنة حكمه بادانة المعري الذي مات قبل أن يبلغه نص الحكم ، فلم يستطع له مناقشة أو استئنافاً بعد أن صار في عالم الخلود .

وهللت مجهرة الناس لهذا الحكم وشفق له طرباً الأغرار وذوو المآرب والحاجات والأحقاد جميعاً .
وقد أصدر داعي اللعنة حكمه في صيغة الاعتذار بعد أن دس فيه الاتهام صريحاً لا مواربة فيه ولا لبس .

داعى الدعاة يعتذر للمعري عن كشف أسرارهِ وإذاعة عقيدته للملأ — عن غير قصد — وهو الذى لم يكتب رسائله إلا ليصل بكل حرف منها إلى هذه الغاية كما أسلفنا القول . ومم يعتذر داعى الدعاة ؟ وما هى تلك الأسرار الخطيرة التى كشفها ؟ وأى كلام قاله المعري فى رسائله هذه من غير أن يوجزه مرة ويفصله أخرى فى لزومياته وغفرانه وغيرهما من عيون آثاره ؟

ولكن داعى الدعاة — الذى ظهر عجزه واضحا فى إقامة دليل واضح يثبت به دعاواه — قد أفلح فى زعمه أنه هتك أستار المعري وأذاع من مستوره ما كان يحرص كل الحرص على إخفائه . فتوهم البسطاء — من معاصريه وغير معاصريه على السواء — أن عقيدة المعري زائفة لا محالة ، وإلا فقيم كان يسترها ؟ وحسبوا أن المعري كان يخفى عقيدته حتى جاء داعى الدعاة فأزاح عنها الأستار وهتك عنها الحجب فإذا المعري — الذى يميل إلى التقية — زنديق فاجر .

ومن الذى أصدر هذا الحكم القاسى على المعري ؟ هو

رجل له مظهر رائع ومخبر خبيث ، فأما مظهره الرائع فهو أنه داعى الدعاة « الذى تلى رتبته قاضى القضاة والذى يتزيا بزيه فى اللباس وغيره وينوب عنه أيضاً ، والذى يحيط علمه بجميع مذاهب أهل البيت ويقرأ عليه ، ويأخذ العهد على من ينتقل من مذهبهم إلى مذهبه ، والذى بين يديه من نقباء المعلمين اثنا عشر نقيباً ، وله نواب كنواب الحاكم فى سائر البلاد ، والذى يحضر إليه فقهاء الدولة وعلمائها فى فى مكان يطلقون عليه « دار العلم » ، ولجماعة منهم — على التصدر بها — أرزاق واسعة ، ووظيفته — كما يقولون — من مفردات الدولة الفاطمية . »

هذا هو مظهر داعى الدعاة الذى يطالع جمهرة الناس وسوادهم أخذاً راءئماً ، وهذا هو جاهه الذى تنخلع أمامه قلوب المتعلقين ذوى المنافع وتريغ أبصارهم حين يضىء لهم بريقه وسناه .

أما مخبره ، فقد فصلناه بعض التفصيل فى مقالنا الأول

وأظهرنا طريقته الخبيثة التي كان يسلكها في زلزلة عقائد المسلمين وسلخهم عن دينهم بما أوتيته من قدرة شيطانية بارعة جعلت المعري يعرض به مراراً في لزومياته ، مما أثار حقه عليه ودفعه إلى مقابلة الشر بالشر والعدوان بالعدوان ، فراح يدبج هذه الرسائل المنمقة ليصل إلى غايته التي كان يتحرق شوقاً إليها — وهي تسوية سمعة المعري — وقد نجح في ذلك كل النجاح .

فأنت ترى حقيقة هذا الرجل الذي أفلح في تسوية سمعة أبي العلاء ، وترى أنه رجل لا عمل له إلا تضليل الناس وزعزعة عقائدهم ليثبت فيها سموم المذهب الباطني .
وأنت ترى أن داعي الدعاة هو أجدر من ينطبق عليه قول المعري :

« جنوا كبائر آثام ، وقد زعموا
أن الصغائر تجني الخلد في النار ^(١) »

(١) وقريب من هذا المعنى قول المعري :
« يجب أناس أن قوما تعرضوا بحماهم نصب العيون الشواذر
لقد أفلحوا أن كان لم يجر عنهم - من الوزر - إلا تركهم للآذر »

والناس فلما يعنون بحقيقة من يصدر الحكم ، وإن عونا
دأباً بمظهره ورفعة منصبه ، وحسبهم أن يتلقفوا الحكم
من القاضى ^(١) قضية مسلمة - مهما بعد عن الصواب -
حتى يصدر حكم آخر من مقام أرفع فينقض سابقه .
على أن الشر أعلق بالنفوس وألصق وأكثر إذاعة
من الخير ، وللمعري خصوم يتلمسون له سقطه يملئون بها
الدنيا ويطيرونها ويقعدونها . والجمهور لا صبر له على متابعة
تفاصيل المناقشة الدقيقة والحكم عليها بنفسه ، وحسب
المنظر اللبق أن يزعم لنفسه الفوز ويسجله ثم يتظاهر
برحمة مناظره والأسف على ما لحقه من خذلان ، فينخدع بكلامه
الجمهور ويعتقد أنه غالب منتصر . وهذا ما فعله داعي الدعاة .

(١) وقد بدع الكاتب الإنجليزي الذائع الصيت « رناردشو » في تحليل هذا الرأي
في روايته « Getting Married » ففكر حوفاً بين زوج يريد أن يفصح
عقد الزواج وآخر يتقبت بتحريم ذلك « لأن ما يعقده الرب لا يحله العبد » فيقول
له الزوج « ولكن القيس الذي عقد الزواج عبد مثلاً » فيجيب : « ولكنه يمثل
سلطة الرب . » وتمتد المناقشة فينقد صهر الزوج ويقول له : « لقد عزل هذا القيس
نسب تتركه وسوء سلوكه ، ألا تزال مصراً - بعد ذلك - على أن ما عقده لا يزال ثابتاً
لا نستطيع أن ننقضه . »

وهذا مثال واضح من احترام الجمهور للحكم أياً كان مصدره .

وقد مات المعري قبل أن يقرأ الرسالة الأخيرة فلم يستطع أن يفند شيئاً من مزاعم خصمه في الانتصار عليه .

ولقد كان كثير من الناس يشغلون أنفسهم بتعرف عقيدة المعري ويميل بعضهم إلى تكفيره كما يميل آخرون منهم إلى حسن الظن بدينه وعقيدته ، حتى جاءت هذه الرسائل فرجحت كفة الاتهام أيما رجحان .

ولسنا نزعم أن هذه الرسائل - هي وحدها - التي سوات سمعة المعري ، ولكننا نميل إلى الزعم بأنها كانت من أكبر الأسباب التي تضافرت على خلق هذا الجو المكفر حول عقيدته وقد خدع يا قوت - في جملة من خدع - بهذه الرسائل ، وظهر تعامله على المعري واضحاً في مناسبات كثيرة ، فشم المعري وسفه آراءه وقال مرة : « إن المعري - حمار » .

ولما لخص رسائله هذه قال في مقدمة تلخيصه :

« وتقلها على هذا الوجه يطول ، فلخصت منها الغرض دون تفاصيل المعري وتشدقه » ولم يقل « دون تفاصيل داعي

الساعة وتشدقه « أو على الأقل : « دون تفاصهما معا » .
فينفى بذلك تهمة التحيز والهوى .

والمعجب أن ياقوت الرومى - على فضله - لا يكاد
يدع فرصة يذكر فيها اسم المعرى دون أن يشتمه أو
يتنقصه . فإذا روى المعرى - وهو الحجة الثابت الصادق في
روايته ، الذى عرف بالأمانة والدقة وسعة الاطلاع - بعض آيات
قالها أحد اليهود في الخليفة عمر ^(١) علق عليها ياقوت بقوله :
« وهذا يشبه أن يكون شعر المعرى قد نخله هذا

(١) يعنى قول المعرى في رسالة الفران : « ولما اجلى عربن الخطاب امل النمة عن
جزيرة العرب شق ذلك على الجالين » فيقال ان رجلا من « يهود خيبر » يعرف بسمير
ابن ادكن ، قال فى ذلك :

« يهول ابو حفص علينا مدرة رويدك ، ان المرء يطفو ويرسب
كأنك لم تتبع حمولة مأكط لتضيع ، ان الزاد شئ عجيب
فلو كان موسى صادقا ، ما اتصرتم علينا ، ولكن دولة ثم تلعب
ونحن سبقتكم الى المين ، فاعرفوا لنا رتبة البلى الذى هو أكذب
مشيم على آثارنا - فى طريقنا - ونيشكم فى ان تسودوا وترهبوا »

وهذا الخبر — كما يراه القارىء طيبى — والآيات لا يستبعد صدورهما من يهودى
موتور اجلاؤه الخليفة هو وقومه عن جزيرة العرب ، والمعرى يذكر الخبر وقوله كلمة
« يقال » ثم لا يزيد ولكن ياقوت لا يريد ان يقتنع ويأبى الا اتهام شيخ المعرة
بسوء النية والتلفيق .

اليهودى ، أو ان إيراد هذا واستلذاذه به من أمارات
سوء عقيدته وقبح مذهبه . »

أرأيت إلى أى مدى تعسف ياقوت فى حكمه واشتط ؟
ولكنه الهوى :

وأفة الرأى الهوى ، فمن علا

علي هواه عقله فقد نجما .

وقد أورد ياقوت - فى كتابه « معجم ياقوت » شيئاً
من أخبار الزارين على المعرى ، وذكر حين تكلم عن ذى
الفضائل^(١) ما يأتى : قرأت فى ديوان شعره بخطه :

أنشدت لأبى العلاء :

هفت الحنيفة ، والنصارى ما اهتمت ،

ويهود حارت ، والمجوس مضللة

اثنان أهل الأرض ، ذو عقل بلا

دين ، وآخر دين لا عقل له .

فقلت محيياً له :

(١) وهو من أجداد القرن السادس ، توفى سنة ٥٢٨ هـ

الدين آخذه وتاركه
لم يخف رشدهما وغيهما
!ثنان أهل الأرض قلت فقل
يا شيخ سوء أنت أيهما

والبيتان « هفت الحنيفة » لا يفهم منهما هذا الفهم
الذى فهمه « ذو الفضائل » وأقره ياقوت فأثبتته من غير
مناقشة . وما أجدر من يتصدى لنقد المعرى أن يتقصى معانيه
حتى لا تزل قدمه ، فإن المعرى كثيراً ما يطرق المعنى
بأساليب شتى - يوضح بعضها بعضاً - وكثيراً ما يظهر
المعنى خفياً فى بعض ألياته جلياً فى الأخرى ، وليس من
الإِ نصاف أن نفهم كلامه فهماً سطحياً ثم نشنع عليه بعد
ذلك من غير حق .

والمعرى لا يريد أن يقول : إن كل متدين لا عقل له
وإن كل عاقل غير متدين . ولكنه يأسف لأنه يرى أكثر
المتدينين مقلدين لا يحكمون العقل ، وأكثر من يحكمون

العقل يغالون فلا يأخذون بأسباب الدين ، وقد قال المعري
 في لزومياته : « كن ديناً وليدباً » وقال في مكان آخر منها :
 « إذا كان التقى بلهاً وعياً فأعيار المذلة أتقياء »
 وهو يعني بالحنيفة أتباعها ، فهو يقول « ههنا المسلمون
 والنصارى واليهود والمجوس وصلوا عن طريق الحق
 والصواب » وهذا كلام لا غبار عليه ، فهو يرى الناس دائماً
 شراً لا خير فيه . وقد قال في موضع آخر من لزومياته
 ما يوضح قوله : « هفت الحنيفة » وهو قوله :

« كتاب محمد وكتاب موسى

وانجيل ابن مريم والزبور

هدت أمماً فما قبلت وبارت

نصيحتها ، فكل القوم بور »

الى آخر هذه الأقوال التي يطول بنا الكلام إذا ذكرناها.

وليس يافوت وحده هو المتحامل على المعري فله مشبهون
 ونظراء كثيرون . فقد سمع « ابن أبي كدية » قائلًا ينشد
 قول المعري :

« ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة
 وحقاً لسكان البرية أن ييكونوا
 تحطمننا الأيام حتى كأننا
 زجاجٌ ولكن لا يعاد له سبك »
 فقال ابن أبي كدية :
 « كذبت - وبيت الله - حلفة صادق
 سيسبكننا - بعد الردى - من له الملك
 ونرجع أجساماً صحاحاً سليمة
 تعارف في الفردوس ، ما عندنا شك ! »
 واليتمان - على ما فيهما من ضعف وركاكة - يدلان
 على تعسف في فهم كلام المعري الذي لم يتعرض فيهما لذكر
 الآخرة (١) ، فهو يقول : إن الموت هو آخر الحياة الدنيا

(١) وقد قل المعري في معنى البيت الاول :

« أعن باسكابا لج في حزنه وسل ضللك القوم : مم ابتج ؟ »
 وقال أيضاً :

« يسمى سروراً جاهل مشغور بفيه البرى ، هل في الزمان سرور ؟ »
 ويوضح معنى البيت الثاني قوله :

« افطر وصم ، او صم وافطر - جليداً - صوم للنبي ما له افطار »

ونهايتها وإن غرور الناس ينسيهم هذه الحقيقة - على بساطتها -
 فيجعلهم يتخيلون الموت رحلة هينة قصيرة المدى كما يقول ..
 في بعض آياته :

« يوصى الفتى عند الحمام كأنه

روح - ليقضى حاجة - ويعود »

وهو يريد أن يقول لهؤلاء الناس :

« كلاً لن تعودوا إلى الحياة مرة أخرى فأقلوا من
 أطعامكم في الدنيا وحرصكم عليها فأنتم زجاج لا يعاد له سبك،
 ولا أمل لكم في العودة، فلا توصوا فهي رحلة لا عودة
 لكم منها » .

وما نريد أن ندافع عن المعري ، ولكننا نريد أن نبين
 للقارئ^١ تحامل ناقديه عليه وتفسيرهم في تقدمه .

ولقد لقي المعري الأهوال وكيلت له التهم - من
 معاصريه وغيرهم - على السواء - وأغرى بعض الولاة بتعذيبه^(١)

(١) وفي ذلك يقول :

كأنني - كل حول - محدث حدثاً يرى به - من قول المصير - اغراباً

واتهمه بعض معاصريه: « بأنه وضع كتاب الفصول والغايات في معارضة القرآن » ورماء غيرهم بالإلحاد . وقال ابن الجوزي في كتابه: « تليس إبليس » ما يأتي: « ومن زنادقة الاسلام من لم يبرح على ثمره قفاته الدنيا والآخرة مثل ابن الراوندي والمعري » .

وقال الذهبي: « والمعري صاحب التصانيف المشهورة والزندقة الماثورة ، وله رسالة الغفران قد احتوت على مُزدكة واستخفاف . »

إلى آخر هذه المزاعم التي يطول بنا الكلام إذا ذكرناها وناقشناها . وحسبنا أن نقول: إن المعري كان مفتوناً بالقرآن وأسلوبه . وقد كتب في رسالة الغفران نفسها أروع وأبلغ ما يكتبه إنسان في وصف القرآن ، وشنع على من تصدى لحاكاته ، وقد حمل على « ابن الراوندي » حملة شعواء وسفهه كل التسفيه لاستخفافه بالدين وتصديه إلى محاكاة القرآن . وقد فند المعري آراء المزدكية بأبلغ حجة وأقوى بيان ، وندد بإياحتهم - في رسالة الغفران - واللزوميات - بصراحة

لا مواربة فيها فقال مرة :
 « شر النساء مشاعات - يكنّ لنا
 كالارض - يحملن أبناء مشاعينا . »
 وقال في مناسبة أخرى :
 « أقروا بالآله وأثبتوه
 وقالوا : « لاني ولا كتاب »
 ووطء بناتنا ^(١) حل مباح
 رويدكم فقد بطل العتاب

(١) يشير المعري هنا الى قول هذه الفتة — وقد أثبت المعري في رسالة التفران —
 وروى ان قيامهم كانت تضرب باللع وتقول :

« خفي لطف يا هذه واخبري وبني فضائل هذا النبي
 تولى نبي نبي هاشم وجه نبي بني يسرب
 فلا تبخني السعي عند الصفا ولا زورة القبر في يثرب
 لانا القوم صلوا فلا تهضي وإن صوموا فكلوا ولشرب
 ولا تحمري نفسك المؤمنين ، ومن اقرين ومن ابخني
 فكيف حلت لاناك الغريب وصرت محرمة للأب
 ليس التراس لمن ربه ورواه في طامه المجرب
 وما الخمر إلا كمال السما بطلق ، قدست من منهب »

وقد شفع المعري رواية هذه الآيات - كما أنه - بلعن قائلها .

تمادوا - فى الضلال - ولم يتوبوا
ولو ممعوا صليل السيف تابوا «
كلمة ختامية

وبعد ، فقد شغل الناس بعقيدة المعرى وفلسفته كما
شغلوا بشعر المتنبى وشاعريته ، واختلفوا فى ذلك اختلافًا
بلغت مسافته من النقيض إلى النقيض . ولا بدع فى ذلك
فقد ألف الناس أن يشتغلوا بالمعظم ويختلفوا فى تقديره .

وقد خلد ذكر المعرى - رغم أنف حامديه - وضاع ذكر
داعى الدعاة فى غمار الخاملين والمجهولين ، حتى يصعب على
الباحث المؤرخ أن يتعرف من هو « هو أبو نصر هبة الله
ابن موسى » - ممثل منصب داعى الدعاة وماهى آثاره العلمية
أو الأدبية ، وإن كان من اليسير أن يعرف الكثير عن
منصب داعى الدعاة الذى يمثل « أبو نصر » هذا وغيره من
الممثلين الدينيين الذين لا خطر لهم ولا قيمة إلا بمناصبهم
الرفيعة وجاههم العظيم .

(٦)

ابن الرومی

« لو نطق البحر بما امله

كانه الرومی او دجبل »

« ابوالملاء »

(١)

كيف أغفله صاحب الأغاني^(١)

ألف أبو الفرج كتابه الأغاني لغرض خاص هو إثبات المائة صوت التي اختاروها للرشيد ، ثم جره ذلك إلى الاستطراد ، فذكر من الطرف والبدائع شيئاً كثيراً حتى أصبح كتابه كنزاً لا مثيل له في كنوز الأدب العربي. فإذا أغفل أبو الفرج التنويه بشاعر فحل كابن الرومي ، فهل نجد من يحتاج له بهذا العذر ؟ وأية دهشة تملكنا ، بل أية حيرة تملأ نفوسنا حين نجيل البصر في هذه الأسفار الضخمة التي تؤلف دائرة معارف أدبية نادرة فترى مؤلفها - الذي أغفل ابن الرومي - قد استطرده أكثر من ألف مرة إلى ذكر من يستحق الذكر ومن لا يستحقه والتنويه بشعراء - إن أجلتناهم مرة - نزهنا ابن الرومي عن أن يوضع معهم في ميزان أو يقاس إليهم بمقياس .

ورأيناهم - إلى جانبه - أقزاماً أمام عملاق !

فإذا زعم زاعم أن شعر ابن الرومي لم يغنَّ به ، قلنا له هذه مسألة فيها نظر ، وليس لدينا الآن ما ندحض به زعمه فإن أخبار ابن الرومي لم يصلنا منها شيء يذكر ، وقد أجمع المؤرخون - أو كادوا يجمعون - على إغفال هذا الشاعر العظيم كما تعتمد أبو الفرج أن يغفل ذكره إغفالا يكاد يكون تاماً ، في حين أنه ملأ الدنيا بأخبار البحترى الذي كان يعاصر ابن الرومي ، وأخبار أبي تمام أستاذ البحترى ، وكثير من معاصريهما وغيرهم من المشهورين كأبي نواس ودعبل الخ . وقد غنى أبو الفرج - في غير كتابه الأغاني - بدواوين من يحبهم من الشعراء ، فجمع ديواني أبي تمام والبحترى ، ورتب ديوان كل منهما على الأنواع - لا على الحروف - كما غنى بجمع ديوان أبي نواس !

وتعمد الإغفال ظاهر ، فإن أبا الفرج لم يذكر ابن الرومي في كتابه « الأغاني » إلا مرتين ، وكأنه لم يذكره إلا ليسى إليه بدلاً من أن يشيد بذكره .

فقد ذكره في الموضع الأول بمناسبة انتحاله يتماً من
الشعر لإبراهيم بن العباس^(١) ، وذكره في مكان آخر من
الكتاب بمناسبة نكبة سليمان بن وهب وابنه^(٢) ليظهره
لنا بمظهر الشامت وكلا الموقفين لا يشرف صاحبه .

ففي الموقف الأول يعرفنا به سارقاً منتحلاً يتماً من الشعر
وفي الموقف الثاني يقدمه لنا هاجياً في غير موقف
هجاء ، ليثبت أبو الفرج - في نفس الصفحة - رثاء البحتري
لسليمان ابن وهب الذي جود فيه - كما يقول أبو الفرج -
ثم يذيع ثناءه على البحتري بإطرائه إبراهيم بن العباس
والإشادة بذكره !

فإذا لم يكن ذلك إغفالا فهو عندنا شر من الإغفال ،
وإذا لم يكن أبو الفرج الأريب الفطن والراوية الثقة قد
تعمد الاساءة إلى ابن الرومي فكيف يكون تعمد
الاساءة بعد ذلك ؟

(١) ارجع الى ج ٩ صفحة ٢٨ من كتاب الاغانى

(٢) ارجع الى ج ٢٠ ص ٧٢ من كتاب الاغانى

لم يكن ابن الرومي خاملاً في عصره حتى يقتصر أبو الفرج على رواية أربعة آيات من شعره في هذه الموسوعة الضخمة . وقد زعم بعض الأدباء أنه كان خاملاً ، وهو وهم يفنده الواقع ، فلم يكن ابن الرومي خاملاً - لا في عصره ولا بعده ، ولكنه كان مكروهاً من الناس لافحاشه في الهجاء حتى لم يكذب يسلم من لسانه إنسان له خطراً ^(١) فإذا قال قائل :- « ولماذا نوه أبو الفرج بدعبل وذكر كثيراً من أخباره وهو كابن الرومي في سلاطة اللسان والإقذاع في الهجاء ؟ »

قلنا إن عصر دعبل قد تقدم عصر ابن الرومي بقليل وقد مات من أساء إليهم دعبل وقل حقد الناس عليه ، فلم يكن هناك بأس من الإشادة بذكره والتتويه بفضله . أما ابن الرومي فقد أساء إلى أعيان الدولة وكبار رجالها كما أساء إلى شيوخ الأدب وزعماء الشعر ، ولم تنزل إساءته - إلى زمن أبي الفرج - عالقة بالأذهان ، ولا زال بعض من

(١) وقد كان الهجاء سبب قتله

أفحش ابن الرومي في هجائهم عائشاً في زمن أبي الفرج ،
وربما كان من بينهم أقاربه وأصدقائه ! . ولقد كان أبو الفرج
من المنتسبين ، وكان ابن الرومي متهماً بالتشيع ، ولم تكن
هذه الصلة شفيعة له عنده ولا سبباً يدعو به إلى التنويه
بذكره .

هجاء البحتري والآخر

ولقد هجا ابن الرومي البحتري الشاعر هجاء مقذعاً
وأفرط في شتمه ، وكان للبحتري مكانة بين أعيان الدولة
وكبار رجالها - حتى بعد موته - وقد رأيت أن أبا الفرج
كان يحبه ويشيد بذكره ويعني بآثاره ، . ولا يتسع هذا
المقام الضيق للأسباب في ذلك وشرح الأسباب التي دعت
إليه ، فلنجتزئ بقوله في هجائه من قصيدة :

قد قلت - إذ نحلوه الشعر - : « حاش له

إن البروك به أولى من الخبب »

وفيها يقول :

« وجسبه من جباء القوم أن يهبوا

له قفاه - إذا مامر - بالعُصب (١) » .

ثم يقول :

« الحظ أعمى ، ولولا ذلك لم تره

للبحترى بلا عقل ولا أدب . » .

وفي هذه القصيدة يقول :

قبحاً لأشياء يأتي البحتري بها

من شعره الغث بعد الكد والتعب

كأنها - حين يصفى السامعون لها

ممن يميز بين النبع والغرب -

رُقي العقارب ، أو هذر البناة اذا

أضحوا على شعف الجدران في صخب

وقد يجيء بخاط ، فالنحاس له

وللأوائل ما فيه من الذهب

ميمين ما نخلوه من هنا وهنا ،
والفت منهم صريح غير مجتلب
يسىء عفا ، فإن أكدت وسائله
أجاد لصا شديد البأس والكلب
ثم يقول :

عبد يفسر على الموقى فيسلبهم
حر الكلام يجيش غير ذى لجب
ما إن ترال تراه لابسا حلا
أسلاب قوم مضوا فى سالف الحقب
شعر يغير عليه بامسلا بطلا
وينشد الناس إياه على رقب
إلى آخر هذه القصيدة الطويلة التى لا نسمح لأنفسنا
بنقل ما ورد فيها من الهجاء المقذع والفحش الشنيع فى
مثل هذا المقام . فليرجع إليها القارئ فى ديوانه إذا شاء .

ولا تنس هجاء ابن الرومى للأخفش - أستاذ أبى الفرج -

فقد كان ابن الرومي يقف حياته على هجاء الأخفش ، وكان
الأخفش يقف حياته على التشنيع به والزراية عليه ، فلا
غرو أن يعرض الأستاذ في نفس تلميذه بذور الكراهية
والبغض لابن الرومي - منذ الصغر - أو يفضي التلميذ
لأستاذه فتعمد إغفال من جعل همه الأول شتم أستاذه
والتشهير به . « وآفة الرأي الهوى ! » .

وإلى القارئ شيئاً من هجاء ابن الرومي للأخفش
ليتبين صحة ما ذهبنا إليه ، قال من قصيدة طويلة رائعة :

« قلت لمن قال لي : « عرضت على الأخ »

فخش ما قلته فما حمده . »

قصرت بالشعر حين تعرضه

على مبين العمى إذا انتقده

ما قال شعراً ولا رواه ، فلا

ثعلبه كان ، لا ولا أسده .

فإن يقل : « إنني رويت » فكالدو

تر جهلا بكل ما اعتقده

أرمت زيني بأن تعرضني

لمدحه ؟ فاللدليل من عضده

أم رمت شيني بأن تعرضني

لثلبه ؟ فالسليم من قصده .

إلى أن قال :

« شعري - شعر - إذا تأمله إلا إذا

سان ذو الفهم والحجا - عبده

لكنه ليس منطقاً بعث إلا

به آية لمن ججده

ولا أنا المفهم البهائم والطير

ر سليمان قاهر المردة

ما بلغت بي الخطوب رتبة من

تفهم عنه الكلاب والقرده

ثم قال - بعد أبيات -

لا رحم الله أم أخفشكم
ولا سقى قبر والد ولده
ماذا عليه وقد رأى ولداً
أعور بجم العوار - لو وأده !
سأسمع الناس ذمه أبداً
ما سمع الله حمد من حمده «
وفي هذه القصيدة أيضاً من هجر القول ما لا يسمع
بذكره المقام .

وقال من قصيدة أخرى :
« لا يأمن السفیه بادرني
فإني عارض لمن عرضا
عندي له السوط إن تلوم في السيف
ر وعندي اللجام إن ركضا »
وفيه يقول :

« أضحي مغيطاً على أن غضب الله
به عليه ونلت منه رضا
قولا له : ينطح الجدار إذا أع
يا ، وصم الصفا إذا امتعضا
ولا يحمل ضعيف مثته
حربي ، فما مثله بها نهضا »

إلى أن يقول :

« أقسمت بالله لا غفرت له إن واحد من عروقه نبضا »

فإذا ذكرنا — إلى ذلك الهجاء المقذع — أن في
التنويه بابن الرومي إساءة إلى جمهرة من أعيان الدولة
وكبار رجالها الذين هجأهم أو هجا آباءهم — كما أسلفنا القول —
عرفنا السر في هذا الإغفال .

٢

ابن الرومي^(١)

ليس أبهج للنفس وأدعى إلى غبطتها من تلك الجهود
التي يبذلها كثير من أدبائنا في هذه الأيام لإزاحة الستور
الكثيفة التي تحجب عن جمهرة المتأدين أعلامنا الممتازين
وقادة الفكر العربي وأساطين الأدب المبرزين ، فان كل
فضل يذمه هؤلاء الأدباء ويسجلونه لهؤلاء الأعلام إنما
هو حجة ناهضة يقيمونها مشكورين على فضل الأدب
العربي الزاخر بأسمى إحساسات الحياة ومثلها الرائعة ، وفيه
أبلغ رد على دعاوى المفتونين بالأدب الغربي - والأدب
العربي وحده - الساخطين على الأدب العربي - بغير حق -
لأنهم لم يفهموه أو - على الأصح - لم يعنوا بقراءته ودرسه ،
والإنسان دائماً عدو ما يحجل .

لهذا امتلأت نفوسنا غبطةً وانشراحاً حين رأينا

(١) نشر بمقتطف نوفمبر سنة ١٩٣١ بتأنيب صدور كتاب عن « ابن الرومي »
للأديب النحيط عباس الفندي محمود العقاد .

ما بذله الأديب النشيط عباس افندي محمود العقاد من جهود مشكورة في إذاعة فضل ابن الرومي والتنويه بشاعريته الخصبية بأسلوبه الذي يجمع إلى اللباقة جدة البحث .

وقد تكاثفت فئة من أعلام أدبائنا المعاصرين على إذاعة فضل ابن الرومي نذكر منهم الأساتذة الأجلاء ابراهيم عبد القادر المازني وحسن السندوبي والمرحومان محمد السباعي والشيخ شريف وغيرهم .

ثم جاء هذا الأديب النشيط فأضاف في كتابه الجديد إلى تلك الجهود المثمرة جهداً مشكوراً جديراً بالإشادة والتنويه . وقد قسم كتابه إلى أقسام ستة ثم أتبعها بطائفة اختارها من شعر ابن الرومي تقع في ستين صفحة .

والقارئ المنصف جدير أن يغتبط بهذا الجهد الذي بذله هذا الأديب النشيط ويسجل ما وفق إليه في كتابه من طرافة المواضيع التي تناولها بلباقته المعروفة . وقد افتتح الكتاب بتمهيد قال في أوله :

« هذه ترجمة وليست بترجمة لأن الترجمة يغلب أن

تكون قصة حياة وأما هذه فأحر بها أن تسمى صورة حياة،
ولأن تكون ترجمة ابن الرومي صورة خير من أن تكون
قصة، لأن ترجمته لا تخرج لنا قصة نادرة بين قصص
الواقع أو الخيال، ولكننا إذا نظرنا في ديوانه وجدناه
مرآة صادقة، ووجدنا في المرأة صورة ناطقة لا نظير لها
فيما نعلم من دواوين الشعراء. وتلك مزية تستحق من
أجلها أن يكتب فيها كتاب.

وله رأي في أن صورة الحياة خير من قصة الحياة،
لأن الواحدة مكمل للآخرى ولا بد من الاثنين لفهم
الشاعر فهمًا تامًا. ولكننا نأخذ عليه شيئًا كثيرًا من التساهل
في التعبير يجب أن يتزهد عنه الناقد الحديث الذي يزن
الألفاظ ويتوخى الدقة. ولسنا نرضى له كذلك أن يقول:
« إن الصورة التي يجدها في ديوان الرومي لا نظير لها فيما
يعلم من دواوين الشعراء » فإن في لزوميات المعنى - وهي
فيما يعلّمه من دواوين الشعراء - صورة ناطقة ومرآة صادقة،

هي-على الأقل-أدق وأصدق من تلك الصورة التي تراها في ديوان ابن الرومي ، وإنما نجتزئ بالتمثيل بالمعري - وكم له من نظراء - لأنه ممن يقرنا عليه الأديب صاحب الكتاب

ولسنا نرضى له كذلك أن يقول في مكان آخر من كتابه : « إن في ابن الرومي خاصة فريدة ليست في غيره من الشعراء وهي مراقبته الشديدة لنفسه وتسجيله وقائع حياته في شعره » فإن المعري لا يزال ماثلاً أمامنا وهو أبلغ رد عليه .

وما ضر هذا الأديب لو توخى الدقة والإينصاف وأراح نفسه وأرضى الحقيقة فقال : « وهذه مزية قلما يشركه فيها أحد من الشعراء ؟ »

إذن لوقاه الحذر العلمي عثرات التعميم والإجمال .
ومما نأخذه على حضرته قوله : « والغريب مع هذا أن ابن الرومي الشاعر هو ابن الرومي الذي لم يعرف بعد . »
والحقيقة هي أن ابن الرومي الشاعر معروف

لأن ديوانه وما كتب عنه من دراسات قيمة ماثلان بين أيدينا ، أما « ابن الرومي » الرجل فهو الذي لم يعرف بعد . وقد اعترف الأديب بأن كل ما عثر عليه لا يحتزى .
في ترجمة وافية أو ما يقرب من ترجمة وافية (١)

على أنه - حين تصدئ لتعريفنا بابن الرومي الشاعر -
لجأ إلى ضرب من المغالاة والإغراق لا نرضى لناقده
حديث أن يتورط فيه الآن .

فاذا جاز لبعض القدماء أن يقولوا : « هذا أمدح بيت
وهذا أغزل بيت وهذا أشعر شاعر . » - وقد انتقد عليهم
ذلك الشطط الأديب الجرجاني صاحب الوساطة - لم يحز
للقائد الحديث أن يتورط في نوع من المغالاة هو - في
نظرنا - شر من هذا فيقول :

« فهو الشاعر من فرعه إلى قدمه ، والشاعر في
جيده ورديته ، والشاعر فيما يحتفل به وما يليقه على

(١) وقد ينس الأستاذ المازني قبله من ذلك فقال : « وما ظلم أن ترضى القارئ
ترجمة لهذا الشاعر بحكمة الحدود » فاق من ذلك لعل يأس كبير « ص ٣٧ من
« حصاد المشيم » .

عواهنه . أويقول : « فأتحرك في حياته حركة إلا
كان لعبقريته منها أوفى نصيب » .
وما هذا كلام ناقد يزن الأمور بميزان المنطق والعقل ؛
ولكنه قول شاعر تسبح به عاطفته وإعجابه في عالمي
الوهم والخيال .

وإذا كان لابد من الدفاع عن رديء ابن الرومي وسخفه
فليسلك طريق الجرجاني ، - في وساطته - ، حين قال
مدافعا عن المتنبي :

« ولو تأملت شعر أبي نواس حق التأمل ، ثم وازنت
بين انحطاطه وارتفاعه ، وعددت منفيه ومختاره ، لعظمت
من قدر صاحبنا (المتنبي) ما صغرت ولأكبرت من شأنه
ما استحققت » إلى أن قال : « فهل طمست معاييه
محاسنه ؟ وهل تقص رديه من قدر جيده (١) ؟ »

هكذا يقال ، وبمثل هذا الميزان الصحيح توزن الأحكام

(١) انظر كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه « ص ٥١ »

ومن الأحكام التي يتورط فيها نقادنا الجدد قول هذا الأديب :
 « إن عبقرية ابن الرومي عبقرية يونانية لولا الإفراط
 والإنهاك ، أو أنها عبقرية يونانية مكبرة الجوانب بعض
 التكبير » فإذا بحثت عن أدلته لم تجد إلا فروضاً لا سبيل
 إلى تحقيقها . ونحب أن نقول : إن أمثال هذه النزعات
 لا تقوى على التحصيل ولا تقرر لحظة واحدة في ميزان
 البحث الصحيح ، ولا نرضى للنقاد الجدد أن يتورطوا
 في مثل هذه المآزق وأن تنفلت منهم المعايير إلى هذا الحد .
 وقد طالما شكونا من الجامدين اللعيب بالألفاظ ،
 فأصبحنا الآن نشكوا من المجددين اللعيب بالمعاني والإسراف
 في الفروض .

وقد ذكر هذا الأديب أن أبا الفرج أهمل ابن الرومي
 بحقاً عليه ولم يبين لنا أسباب هذا الحق ^(١) .

ثم إنه سلك في مناقشة « ابن خلكان » مسلكاً لا نرضاه

(١) كتب الأديب عباس الفتندى محمود العقاد فصلاً في مجلة الجديد بالمعد السادس عشر
 من السنة الثانية « بتاريخ ١٣ - ٥ - ٢٩ » أفرقه الأسباب التي ذكرناها في مقالنا السابق

له ، وتأول في كلامه وتعسف حتى أخرجه عن الجادة وحمل ألفاظه ما لا قبل لها باحتماله . فقد شاء أن يرى في تعريف « ابن خلكان » الدقيق تقصصاً كبيراً « هو المهم وهو الأجدر بالتوثيق » ، وهو المزية الكبرى في الشاعر . فإن شئت أن تتعرف ما هي تلك المزية الكبرى التي أغفلها « ابن خلكان » قال لك : « هي الطبيعة الفنية التي تجعل الفن جزءاً من الحياة » . ومتى أغفل « ابن خلكان » ذكر هذا التعبير الجديد — الطبيعة الفنية — « Artistic Nature » فقد ترك أهم مميزات ابن الرومي .

ثم قال : « ولعل أبا الفرج سكت لأسباب أخرى من جملة ما في مكانها من تاريخ الشاعر . ومضى هذا السبب أن صاحب الاغاني لم يكن مستطيعاً أن يقدّر ابن الرومي حق قدره لأنه كان أمورياً وكان ابن الرومي شديد الكراهية للامويين »
فلما أنا الأديب عن تلك الأسباب الأخرى صجز عن الجواب ، وقال إنه سيفكر فيها فيما بعد .

ولما بينا له ضعف استدلاله وخطأه في الاستنتاج ، وأظهرنا له أن ابن الرومي كان يميل إلى التشيع وإن أبا الفرج يشاركه في هذا الميل ، وأنهما بذلك يكرهان بني أمية ، وأن هذا السبب كان جديراً أن يذكر في الأسباب التي تخفف عليه نقمة أبي الفرج وتخفف له عنه . اضطر الأديب أن يحذف هذا الفصل كل من الكتاب — من غير أن يشير إليه بكلمة واحدة — وهنا مثال عجيب لم تكن نرضاه لأديب غايته للبحث عن الحقيقة وتوضيح الانصاف .

ولسنا ندرى كيف يمكن أن يكون الغوص على
المعاني النادرة وإبرازها - في أحسن صورها - غير مصحوب
« بطبيعة فنية وإحساس بالغ وذخيرة نفسية . »
وكيف تكون المعاني النادرة « أصدافاً كأصداف
ابن نباتة وصفي الدين الحلبي وأضرابهما ؟ »
وكيف يكون ذلك « لعباً فارغاً كلعب الحواة
والمشعوذين ؟ »

وكيف تكون المعاني نادرة وهي كما يقول : « أصداف
حقيرة تافهة ؟ »

أيحذر بنا أن نفهم أن هذا التعبير الواضح يمكن أن
يحتمل مثل هذا التأويل ؟ وهل نفهم أن المعاني النادرة
يمكن أن يكون معناها النادرة في السخف ؟ وهل نفهم من
قولهم : « رجل نادر » أنه رجل نادر في الغباء مثلاً ؟

إن للألفاظ مدلولات ومعاني لا سبيل إلى تجاوزها

مهما بذلنا من جهود وتأويلات . ويجب أن نفهم بالبداية مبلغ الفرق بين الغوص على المعاني النادرة والغوص على المناسبات الفارغة والولوع بالقشور الحقيرة .

وكيف يبرز الشاعر تلك المعاني النادرة في أحسن صورها من غير أن يسعده طبعه ، أو « طبيعته الفنية » « Artistic Nature » إن كان لابد من هذا التعبير الفرنسي ؟ ولست شعري كيف يتسنى للشاعر أن يؤدي تلك المعاني الرائعة « من غير أن يكون عنده ما يعبر عنه » كما حاول أن يقنعنا ذلك الأديب ؟

إن الطبيعة الفنية هي ما ألفنا التعبير عنه بكلمة « الشعارية » - في الشاعر - وقد كان نقاد العرب يوجزون - مع الإحاطة الشاملة - فيقولون : « الشاعر » ويحزنون بهذا اللفظ عن كل ما يستزمه - من طبيعة فنية وما إلى هذه التعابير - فإذا قصر في شيء منها قالوا : « إنه ناظم أو متكلف » ونهبوا إلى ما قصر فيه .

فأنت ترى أن « ابن خلكان » لم يترك شيئاً جديراً بالتنويه ولم يدع إلا الفضول ، فهو يرى أن الشاعرية أو « الطبيعة الفنية » صفة لازمة للشعراء ، وليس يميز « ابن الرومي » عن أضرابه غير تلك المزايا التي ذكرها « ابن خلكان » في وصف ابن الرومي ^(١) فهي وتحتها التي تميزه عن البحتري وأبي نواس ودعبل ومهيار وغيرهم ، أما الطبيعة الفنية فهي تراث شائع بين هؤلاء جميعاً .

وقد ذكر « ابن سعيد المغربي » ، الذي استشهد الأديب بقوله : قولهم إن « ابن الرومي » كان أحق الناس باسم شاعر ، أي أنه أقوام « طبيعة فنية » على حد التعبير الجديد . ثم علل « ابن سعيد » جدارته بهذه التسمية بكثرة اختراعه وحسن توليده ، وهو بهذا يذهب مذهب « ابن خلكان » أيضاً .

(١) وإلى القارئ تص عبارة ابن خلكان :

« يفوس على اللعان النادرة فيستخرجها من مكانها ويعرضها في أحسن صورة ولا يترك اللحن حتى يستوفي إلى آخره ولا يبقى فيه بقية . »

ثم ما قيمة الطبع وحده - أو الطبيعة الفنية وحدها -
إن لم تصحبها وسائل التعبير والافتتان في الأداء ؟
لقد كان « الجرجاني » في وساطته أكثر توخياً للدقة
وتحريراً للإصابة حين عرض لهذا المعنى فقال :
« وتجد الشاعر أشعر من الشاعر ، والخطيب أبلغ
من الخطيب ، فهل ذلك إلا من جهة الطبع والذكاء وحدة
القريحة والفطنة ، فأنت ترى أن الطبع محتاج الى متمات
لا تقل عنه خطراً ^(١) »

ثم قال الجرجاني في موضع آخر من الكتاب :
« وملاك الأمر في هذا الباب خاصة ، ترك التكلف
وزفض العمل والاسترسال للطبع وتجنب الحمل عليه
والعنف به ، ولست أعنى بهذا كل طبع بل ، المذهب الذي

(١) انظر « ص ٢٠ » من كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه ، وقد قال الجرجاني
في ص « ٨٦ » من الرسالة :

« وليس من شرائط الصفة أن تنمى على الشاعر بيتا شذو ، وكله ندرت ، وقصيدة لم
تسمعده فيها طبعه ، ولنظرة قصرت عنها عنايته »

(٢) انظر « ص ٢٨ » من كتاب الوساطة

صقله الأدب وشحذته الرواية وجلته الفطنة ، وألهم الفصل
بين الردى، والجيد وتصور أمثلة الحسن والقبيح . «
وئمة ترى أن نقاد العرب لم يتركوا من هذا المعنى
شيئاً إلا جلوه فى أحسن معرض ووفوه حقه من العناية
والاهتمام ، وإن كانوا لم يعبروا عنه بالتعبير الفرنجى الجديد
الذى قن به هذا الأديب ، فنقله إلى العربية وهو يحسب
أنه قد عثر على اكتشاف ثمين ، فراح يباهى به فى كتابه
بعد أن ظن أنه ظفر بما لم يوفق إليه أحد .

وبعد فهذه نظرة تقدير وإضاف لكتاب هذا
الأديب ، وفيه - عذا ما ذكرنا - مواضع للإصابة جديرة
بالتنويه بها ، ومواطن كثيرة للنقد جديرة بالتنبيه إليها ،
فلنتركها الآن مجتزئين بهذه اللحات .

على أننا جديرون أن ننبه إلى عيب رئيسى قد انتظم
كتاباه فشوهه أشنع تشويه ، فقد كان أسلوبه مثالا عجيباً

للتعقيد والتهاون في التعبير وإلقاء الكلام على غواهنه،
والتزول بأسلوب النقد الأدبي الدقيق إلى الأسلوب الصحفي
السريع الذي لا يعنى فيه كاتبه بتخير الألفاظ الدقيقة
ووزن الأحكام — بروية وأناة — بميزان المنطق الصحيح.

اتهى الكتاب

ديوان ابن زيدون

شرح

كامل كيلاني و عبد الرحمن خليفة

مضبوط ضبطاً كاملاً ، ومطبوع على ورق مضقول ،
ومشروح شرحاً دقيقاً ، وبه مقدمة تحليلية مع صفوة
أخبار ابن زيدون الطريفة ، ورسائله الممتعة . وتاريخه
الحافل . وتعريف القارئ بمزاياه الباهرة .

وهذا الديوان هو الحلقة الأولى من سلسلة :

شعراء الاندلس

ويطلب من مكتبة الحلبي والمكاتب الشهيرة

كتب المؤلف

رسالة الغفران أجزاء ثلاثة في سفرين

نظرات في تاريخ الأدب الاندلسي : مجموعة محاضرات القاها

المؤلف في الجامعة المصرية

قصص من بوكاتشو وقصص أخرى

مختارات كامل كيلاني مقالات شتى في الادب والاجتماع

ديوان ابن الرومي أجزاء ثلاثة في مجلد واحد

مختار القصص أسلوب طريف في القصص

مصارع الخلفاء { مشاهد رائعة نقلها المؤلف عن

مصارع الأعيان } التاريخ

صور جديدة من الأدب العربي مجموعة مقالات نشرت

تباعاً بمجلة المقتطف

مكتبة الاطفال

بقلم
كامل كيلاني

حكايات للأطفال

- (١) الدجاجة الصغيرة الحمراء - وحكايات أخرى
- (٢) أم الشعر الذهبي - وحكايات أخرى

قصص للأطفال

- (١) السندباد البحري . (٢) علاء الدين
- (٣) روبنسن كروزو (٤) تاجر بغداد

قصص فكاهية للأطفال

- (١) غمارة (٢) الأرنب الذكي (٣) عفاريت اللصوص
- (٤) نعمان (٥) العرنذس (٦) أبو الحسن

قصص جديدة للأطفال

- (١) بابا عبدالله والبروش (٢) أبو صير وأبو قير

- (٣) على بابا (٤) عبدالله البري وعبدالله البحري
(٥) الملك عجيب (٦) خسرو شاه

قصص شكسبير للأطفال

- (١) العاصفة (٢) تاجر البندقية
(٣) يوليوس قيصر (٤) الملك لير

أشهر القصص للأطفال

- (١) رحلات جعفر (٢) الكوميديا الالهية
(٣) دون كيشوت (٤) شمشون الجبار
(٥) رحلات ابن بطوطة

قصص غلمية للأطفال

- (١) النحلة العاملة
(٢) العنكبوت الحزين

قصص غشيلية للأطفال

نظرات في تاريخ الادب الاندلسي

مجموعة محاضرات ألقاها في الجامعة المصرية كامل كيلاني تناول فيها الكلام على أهم النقاط الرئيسية التي أثرت في الأدب الأندلسي وأتى ببذرة من تاريخ الأندلس ونشأة ملوكها وأثرهم في البلاغة وخطر الدين عندهم وشغفهم بالموسيقى وأثر ذلك في انشاء الموشحات وتأثرهم بالمشاركة وموازنة بين ابن هانيء والمتنبي الخ. مع مناقشة طائفة من آراء المستشرقين: نيكلسون ودوزي ومقارنتها بآراء أشهر مؤرخي العرب. والكتاب مطبوع على ورق صقيل وعدد صفحاته أربعائة من القطع الكبير وثمنه ١٠ قروش

ديوان ابن الرومي

اختيار وتصنيف الاستاذ كامل كيلاني

ان الأدباء وهواة الشعر يشعرون بذلك الفراغ الذي تركه عدم نشر هذا الديوان الفذ، ولقد كان من يود منهم

أن يقرأ أو يدرس شيئاً من شعر ذلك الشاعر الفيلسوف
يقنع بما نقل عنه في كتب الأدب الأخرى وهو قليل
لا يشقى غلة ، أو يتردد على دار الكتب يتجشم المشقة في
نقل ما يود أن يقرأ أو يختار من النسخة المحفوظة ، لذلك
كان طبع ديوان ابن الرومي ونشره يعتبر عملاً نافعاً يقابله
الأدباء بالسرور والثناء على تجشم المشقة في سبيل تحقيقه .
يقع في نحو خمسمائة صفحة في جلد قماش ومعه عشرون
قرشاً .

رسالة الغفران

للشاعر الفيلسوف أبي العلاء المعري

إيجاز وشرح كامل كيلاني

الطبعة الثانية

آية الأدب العربي . لا أستثنى منه شيئاً . لا أستثنى
منه شعراً ولا نثراً ، ولا أستثنى منه قديماً ولا حديثاً ،
لا أستثنى منه شيئاً ما .

هي آية الأدب العربي كما أن صاحبها هو آية كتاب العرب.. هي آية التفكير العربي هي آية الخيال العربي . هي آية السحر العربية . هي آية الحرية العربية . هي آية العرب في هذا كله ، لا أغلوا في ذلك ولا أسرف بل اعترف بأنني دون ما أريد . طه حسين

وهي أجزاء ثلاثة يضمها سفر واحد . في الجزء الاول منها « رواية الغفران » وفي الجزء الثاني « الرد على ابن القارح » وفي الجزء الثالث « رسالة ابن القارح ورسالة الملائكة » هذا إلى دراسات فئة من أساطين الأدب مستشرقين وغير مستشرقين وآرائهم في الرسالة

وقد لفتح هذا السفر النفيس بثلاث مقدمات تحليلية شائقة تبين أغراض الرسالة ومراميها الدقيقة كتبها الاساتذة « الدكتور طه حسين » و « فريد وجدى » و « شارح الكتاب » والكتاب مطبوع طبعة متقنة على ورق جيد وعدد صفحاته خمسمائة صفحة وثمانه ١٥ قرشاً

حكايات للأطفال

بقلم الأستاذ

كامل كيلاني

مطبوع أفخر طبع ومضبوط ضبطاً كاملاً ومحل
بكثير من الصور الملونة الجذابة ، أسلوب عربي سهل ،
طريقة مبتكرة في تعليم صغار الأطفال
يصلح لرياض الأطفال والمدارس الأولية والسنة
الأولى الابتدائية

ويطلب من المطبعة العصرية لصاحبها إلياس أنطون
إلياس ، ومن المكاتب الشهيرة

الجزء الأول : الدجاجة الصغيرة الحمراء وحكايات أخرى
الجزء الثاني : أم الشعر الذهبي وحكايات أخرى

كتب تطلب من مكتبة الآداب

- ملف
- ٨ رواية بولين أو غادة ليون ترجمة صالح محمد والمنفلوطي
- ١٥ جمهورية أفلاطون
- ١٠ ديوان عبد المطلب
- ٥ أخبار سيديو المصري منقولاً عن مخطوط
- بدار الكتب المصرية
- ٥ قاموس الصناعات والفنون لخليل سابا
- ٥ نماذج الانشاء للأستاذ سالم
- ٣ محاضرات الشيخ عبد العزيز جاويز أثر القرآن في تحرير الفكر البشري
- ٢ فروزو أو سر الجزيرة
- ٥ ريس مذكرة الجيب التاريخية للسنة الرابعة الابتدائية
- ٥ ، ومن أفكار النحوية للمدارس الثانوية والابتدائية
- الكنت Companion
- الجزء الأول : ا
- الجزء الثاني : أم الشعر الذهبي